يوميات مدرس في الأرياف

حسام مصطفى إبراهيم

يوميات مدرس في الأرياف / يوميات

حسام مصطفى إبراهيم

الطبعة الثانية ، ٢٠٠٩

الطبعة الثالثة ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ١٩٨٨/٢٠٠٩

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٤٧- ٤

يوميات مدرس في الأرياف

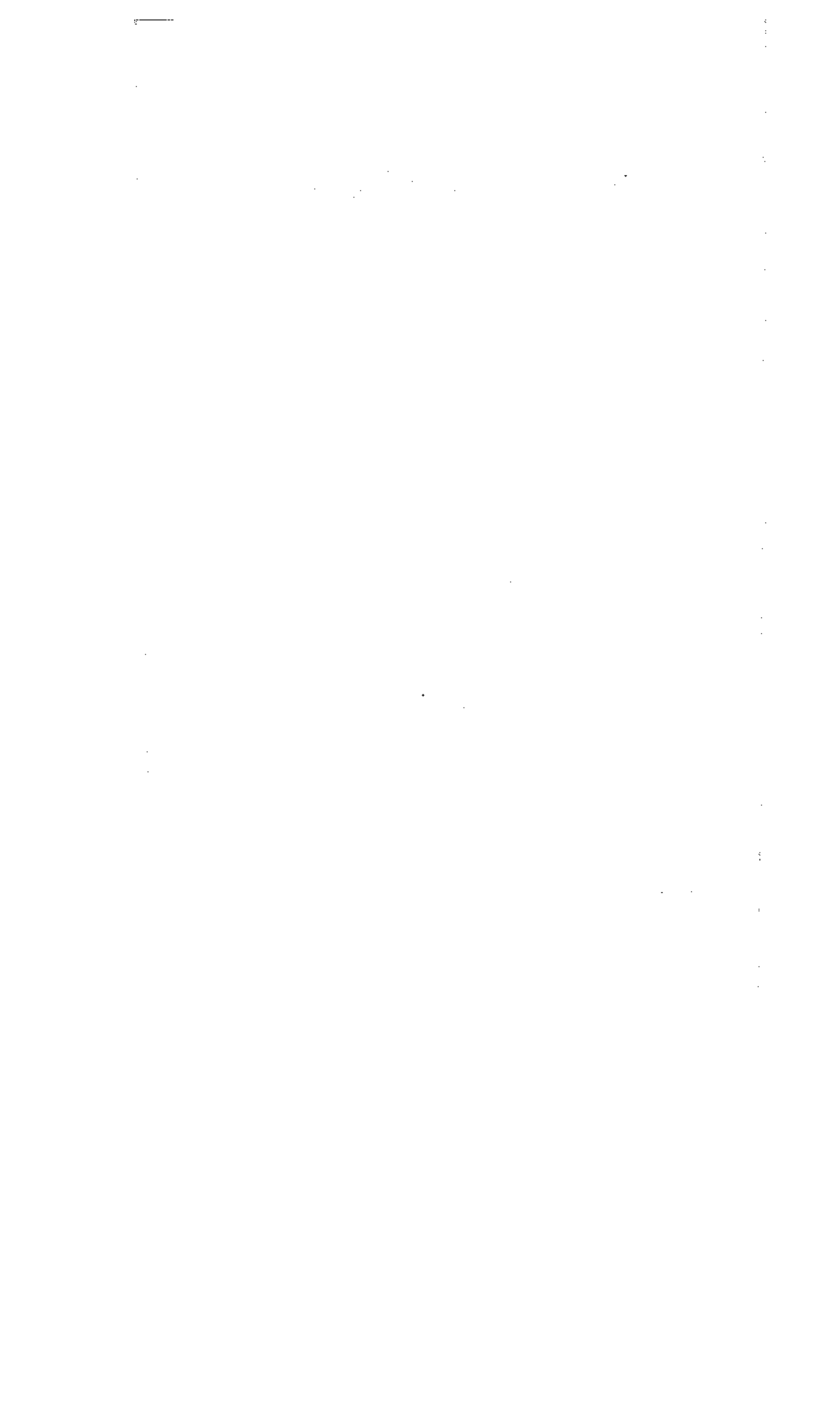
حسام مصطفى إبراهيم

الطبعة الثالثة

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

رحل والدي ــ يرحمه الله سبحانه وتعالى ــ قبل أن يرى كتابي النور.. ورغم أني قد قرأت عليه معظمه من قبل.. فلم أتمن شيئًا قدر أن يكون إلى جواري وأنا أتسلم أول نسخة منه!

كان والدي كاتبًا وأديبًا وعالمًا باللغة العربية لم ينصفه زمانه ولم يمنحه المكانة التي يستحق، وكان قبل ذلك أبًا من طراز لا يمكن أن تكرر.. كان أول من علمني القراءة والكتابة وقواعد اللغة وضوابطها وقبلها : الإحساس والجمال والذوق.

تتلمذت على قصصه ومسرحياته التي كانت تعبر عنه وعن قضايا وطنه، وكان أول من آمن بأن لدي شيئًا يمكن أن أضيفه لمن حولي.

أحببت هذا الرجل كم لم أحب أحدًا.. وحزنت على هذا الرجل كما لم أحزن على أحد.. وإن كنت لم أستطع أن أعبر له عن حبي واحترامي بما يكفي وهو على قيد الحياة.. فلعل في إهدائي إليه هذا الكتاب بعض الاعتذار عما قصّرتُ في حقه من قبل.

وحسب ما أعرف عنه من طيبة ومن عفو، فإنه سيقبل هديتي ويسامحني ويشفع لي عند ربي يوم القيامة.. فإلى والدي وسيدي وحبيبي وتاج رأسي أهدي إليه بعضًا من فيضه.

وإلى والدتي .. الطرف الثاني من معادلة الحنان والرحمة.. وآخـــر خيط يربطني بالسماء..وإلى زوجتي وحبيبتي التي تحملتني كما لم أتحمل نفسي!

وإلى أ.زكي الجندي و محمد عبيه وباسم عبيه وأحمد عمار ونانسي حبيب ودعاء سمير .. أفضل من عرفت في الأيام الفائتة.

وإلى د أحمد الشامي و د أمل أبو الفضل .. اعترافًا بالفضل وشكرًا وامتنانًا.

ثم حمد الله وأثنى عليه

أحمد الله أنني لست من الذين تخدعهم الصور التي يختارها مؤلفو الكتب لأنفسهم، لو كنت كذلك لكنت قد حرمت نفسي من متعة قراءة هذا الكتاب الجميل، فعلى الغلاف الخلفي للكتاب ـــ في الطبعة الأولى ـــ اختار كاتبنا "حسام مصطفى إبراهيم" صورة "عصماء" تليق بمندوب مبيعات في شركة أدوية، أو في أحسن الأحوال بملحق تجاري اجتاز للتو وبنجاح ساحق اختبارات التمثيل التجاري.

أحمد الله أيضًا أنني لست من الذين تخدعهم أسماء الكُتّاب ولا تفرق معهم إذا كانت أسماء مفهومة أو غير مفهومة (وإلا لما كنت قد أعلنت إعجابي يومًا ما بكاتب جميل اسمه "بستاني نعمان التلباني") أسماء ثلاثية كاسم "حسام" أو حتى خماسية، حتى لو كان الاسم الثلاثي يليق بكاتب إستراتيجي أكثر من كونه يليق بكاتب ساخر.

أحمد الله ثالثًا أنني لست من الذين يقفلون من الكتب لأن عناوينها لا تعجبهم، وإلا لكنت قفلت من عنوان هذا الكتاب الذي تكمن خطورته في أنه قد يوحي لك أنك بصدد مقلب ستشربه غصبًا عنك، وسط انفجار ماسورة اللطافة بكتب شُبِّه

لأصحابها أنهم كتاب ساخرون، بينما هـم أقـرب إلى فـن السخرية بالشين وليس بالسين.

أحمد الله وأثني عليه ملء السماء وملء الأرض لأنني كسبت كاتبًا اسمه "حسام مصطفى إبراهيم".

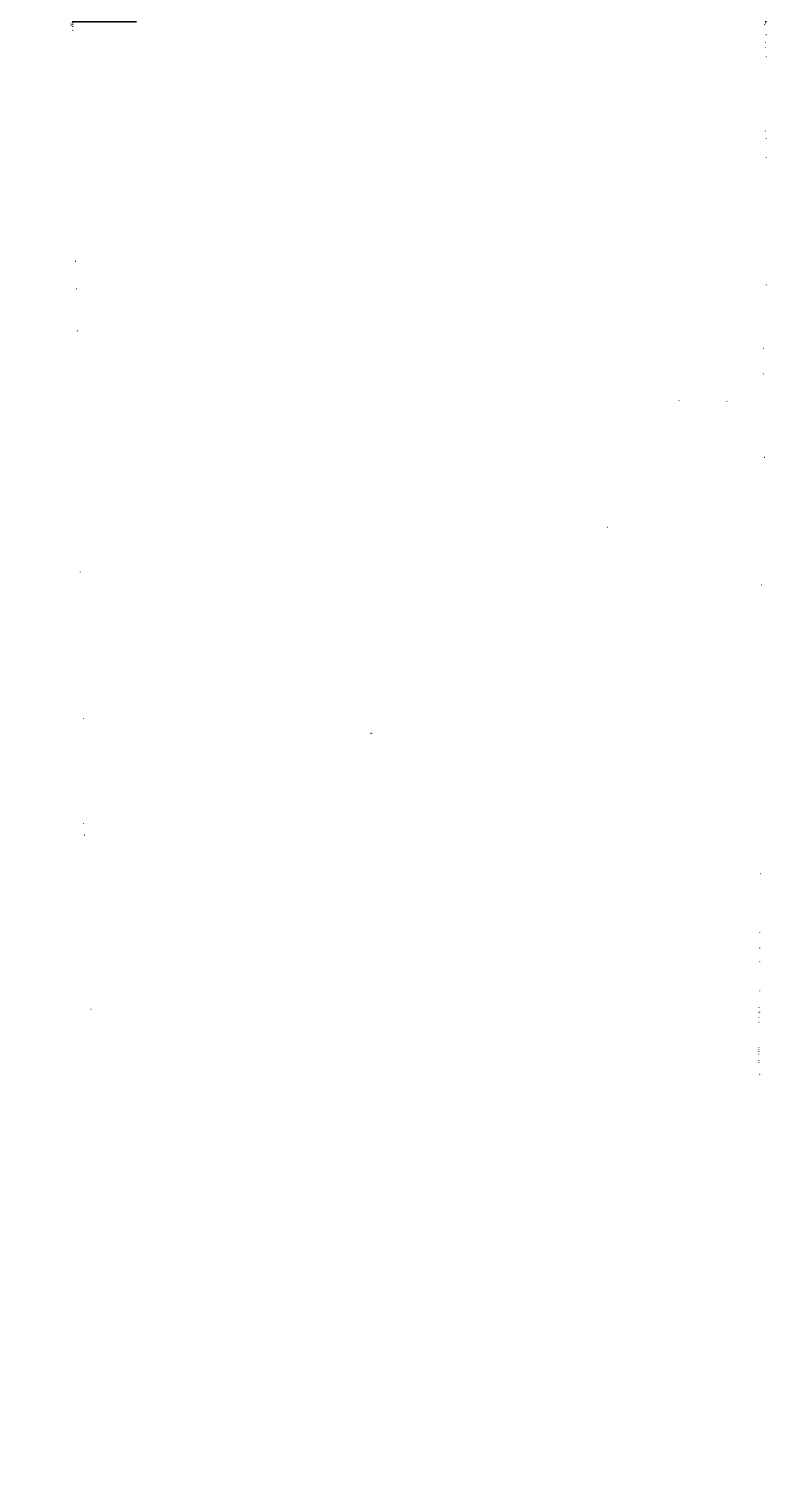
وقبل أن أنتهي من الحمد والشكر وتقوموا إلى حياتكم يرحمكم الله، دعوني أحمد الله مجددًا على أنني تعاملت مع هذا الكتاب كما ينبغي للقارئ أن يتعامل مع أي كتاب يقع تحت يديه، بأن يسيب نفسه كلية للكاتب متجاوزًا عن إهدائه ومقدمته باعتبارهما في الأساس يخصان الكاتب أكثر مما يخصان القارئ، ومن الظلم أن تحكم على الكاتب من إهدائه الذي قد يوحي من فرط صدقه بالعبط، لكن "حسام" ولله الحق أسرني بإهدائه الذي يمتلئ إنسانية ودفئًا، ثم استفزني بحديثه عن والده الضليع في اللغة العربية رحمة الله عليه، فأخذت أقرأ الكتاب باحثًا عن حصيلة الثمار التي زرعها الأب في ابنه، فوجدتُ بحمد الله ثم بفضل أب عظيم ثمارًا يانعة استوت وطابت وطلبت الأكالة، وجدت كاتبًا متمكنًا من لغته في عصر جنت فيه النوايا الطيبة على اللغة الجميلة، واغتالت حريةُ التعبير أسلوبَ التعبير، وأصبحت الكتابة الساخرة مرادفًا للهرتلة والركاكة، وبدلاً من أن يقوم الكُتّاب الذين يُهيأ لهم أنهم

ساخرون بتطعيم ما يكتبونه بالمفردات العامية، أصبحت أنـــت تحتاج إلى تطعيم يقيك من آثار قراءة كتابتهم غـــير المتعـــوب عليها بل المتعوب منها.

أضحكني "حسام مصطفى إبراهيم" من قلبي دون أن يضطر إلى الشقلبة على صفحات كتابه لكي يضحك قراءه كما يفعل الكثيرون من المدّعين، أبهرني بحسه الدرامي العـــالي الفطـــري فاختطفني من كنبتي التي لا أغادرها ليطـــوف بي في كنبـــات الأرياف وجنبات الأرض دون أن أكون بحاجة إلى ذل الوقوف في موقف عبود ومكابدة عناء الانحناء في "بيجو" سبعة راكب عرقان، جعلني أعيش معه في أرياف مصر التي دَخَلَتْهَا المدارس وأطباق البث الفضائي والمستشفيات، لكنها لازالـــت تنتظـــر دخول التعليم والثقافة والصحة والمياه النظيفة والوعود الرئاسية.

كتاب "حسام" كتاب مضحك مثلما هو كتـــاب مبـــكٍ، وهذه هي قيمته الحقيقية في بلد ولأهل بلد حلت عليها وعليهم منذ أيام "أبي الطيب المتنبي" لعنة المضحكات التي تُفسد عليهـــا حياتها وحياتهم بضحك كالبكاء، ولعل الله يزيل عنـــها وعـــن أهلها تلك اللعنة ولو حتى مع صدور الطبعة الألف مـــن هـــذا الكتاب.

بلال فضل



الطلعة الأولى

صديقي الصحفي "محمد عبيه"، دخل عليّ مرة، فوجدني أزفر في غيظ، أقوم من مكاني وأقعد، أذهب وأجيء، وأنظر للحائط بشوق، وأتمنى أن أخبط رأسي فيه، فأجلسني قسراً، وراح يسألني:

- "مالك يا ابني؟"

- "خلاص، طهقت، مليت، تعبت، اتجننت".

- "من إيه بس يا عم؟"

- "م اللي بيجرى لي في الفصل".

- "ما كل مهنة وليها متاعبها، وإنت عارف قبل ما تبقى مدرس، إنك لازم هتقابل شوية مشاكل"

- "شوية، قول شويييييات".

فسرح بنظره قليلاً، ثم لم تلبث ابتسامة خبيثة -أعرفها جيداً وأحفظها- أن ظهرت على وجهه، وهو يقول:

- "طيب ما تكتب عن اللي بيحصل معاك في الفصل، وتحاول تحلله وترصده"

- "إنت أكيد بتهزر".

- "بالعكس أنا بتكلم جد الجد، على الأقل هنفوز برصد حقيقي للعملية التعليمية من جواها، وتبقى فرصة كويسة عشان نعرف فين أخطاءنا وازاي نعالجها"

ولكني لم آخذ كلامه مأخذ الجد طبعاً، وجعلت أُلهيه، حتى نسي أو تناسى!

وبعدما انصرف وبقيت وحدي، لاحظت أنه لم يشرب زجاجة "الفيروز" التي أحضرتُها له، فسعدت جداً بذلك، وأخذت أشربها مستمتعاً، و أنا أُقلّب كلامه في ذهني!

ووجدت الفكرة بدأت -على استحياء- تروق لي، وتستولي عليّ، شيئاً فشيئا، إذ أن ما يحدث معي، ومع كل مدرسي مصر تقريباً، شيء "ولا في الخيال"، ويمكن لو بدأتُ الحديث عنه الآن، أن تنتهي جميع أوراق الدنيا وأقلامها ولا ينتهي البوح ولا تنقطع "الفضفضة"!!

فما سأقول وأروي، ولا في الأساطير، ولا حكايات أخينا "الزير سالم" نفسه، أو كبيرنا "عنترة بن شداد"!

وأنا قد دخلت "الخيّة" بقدمي، وبكامل إرادتي الحرة -كما يقول مصاصو الدماء!- منذ حوالي خمسة أشهر -عندما فكرت

في كتابة هذه اليوميات- ولكني مع ذلك أشعر أني ولا الملكة "إليزابيث" عمراً!!

فالزمن تغير، وكأن أحدهم سرقه وأبدله، والأخلاق والعادات والتقاليد، وتراجعت مكانة المدرس، حتى اختبأت تحت السلم!

ولم يعد لا تربية ولا تعليم ولا يحزنون، وإنما مسرحية هزلية، مكررة وسخيفة، يشترك فيها الجميع، وهم يعلمون آخرها جيداً، يلعب فيها التلميذ دور مدير المسرح والمخرج والمنتج والممثلين، أما المدرس فيلعب دور عامل رفع الستارة!

وقلت بيني وبين نفسي: "يلاَّ.. زي ما تيجي".

وجردت القلم، وبدأت رحلة الكفاح مع الورق، وأنا أعصر خلايا مخي -إن كان ما يزال متبقياً منه أي شيء!- خلية خلية، لأستنطقها، وأكتب عنها شهادتها!

ووجدت أنني مثل الطبيب، الذي يستقرئ الأعراض، ويستمع إلى شكوى المريض، ليصف الدواء الناجع، ويريحه من همه!

ووجدت أنني مثل القاضي، الذي يحاكم الوقائع، ويتقصّى الأحداث، ليعطي كل ذي حق حقه! ووجدت أنني مثل رسام الكاريكاتير، الذي يضخم العيب أحياناً، ويرسمه أكبر من حجمه في الحقيقة، ليوضحه أكثر، ويظهره لعيون الراصدين، ومن يهمه الأمر!

ووجدت أني مثل المدرس الذي..، لحظة واحدة، ولكنني مدرس فعلاً!، ولكن هذه بعض أفضال هذه المهنة عليَّ، وبعض آثار الاحتكاك المستمر بالطلاب الأعزاء!

وبعد..

فهذه بعض الخواطر والأفكار واللوحات والصور، عما يحدث للمدرسين مع "أسيادنا" الطلاب، ربنا يجعل كلامنا خفيفاً عليهم، من مواقف وأحداث، بعضها مضحك وبعضها مبكٍ، ووصف لما يلقونه من معاناة وإهمال وتعذيب، رغم قدسية وجلال هذه المهنة!

فإن أعجبتك، فلله الفضل والمنة، ثم لعبقريتي الفذة، التي لن تتكرر، وإن لم تعجبك، فالغلطة غلطة "محمد عبيه" وحده.

وهو الذي يستحق اللوم والتقريع والشتيمة كذلك، ولديَّ عنوانه كاملاً، لكل من يريد أن يضربه، أو يرفع عليه دعوى قضائية، بسبب تحريضه لي على "مشاغبة" الكتابة، وأنا مستعد لمساعدته على أخذ حقه –منه– كاملاً!

فهو صاحبي الوحيد، وهذا –بلا شك– واجب كل صديق مخلص تجاه صديقه كما تعلم!!!

حسام

المبتدأ والخبر

المبتدأ: اسم يقع في أول الكلام ، **والخبر**: هو الذي يتمم معناه، والاسم الذي ظل يتردد في أذني فترة طويلة، في أول النهار، كان "حسام" :

- "حسام، حسام، قوم يا حسام".

وصاحَبَ ذلك هزاتٌ عصبية من يد أمي، شملت جسدي كله، وأما الخبر الذي أكمل عليّ: فكان أسود، ولا داعي له على الإطلاق، إذ وهي من الفرحة الطاغية لا تكاد تفسّر ما تقول، تمسك بيدها ظرفاً كئيب المنظر، وتلوح به في فخر وتقول:

- "جواب التعيين.. جالك جواب التعيين".

وأنا -بالطبع- أحدق فيها ببلاهة رائعة، ولا أكاد أفهم أي شيء على الإطلاق، أحاول أن أركز ذهني قليلاً، وأزيل ما عليه من صدأ ونوم، وهي تكرر الكلمة في هستيريا، وتعيد وتزيد، وتكاد ترقص وتغني، وتطير عبر فراغ الحجرة، فأهرش في رأسي، ومن وسط كلامها المتداخل ألتقط خيطاً وأتمتم:

- " جواب التعيين..؟.. يعني إيه..؟ "

فتلكزني في جنبي بشدة وهي تكاد "تفرقع" من الغيظ وتقول لي:

- "جواب التعيين يا ابني.. تعيين الحكومة.. الحكومة يا بني آدم.. تعيين الحكووومة"

فيدق في ذهني شيء ما، وأتذكر طيفاً من بعيد، بعيد جداً، غير واضح المعالم تماماً، عليه غبار السنين، يطفو مرة إلى وعيي، ويغيب مرات، "التعيين؟"، لا شك أني سمعت هذه الكلمة ذات يوم في حياتي، وربما كان لها وقتذاك معنى ما، تعب مخي، وأحسست بالصداع من جراء محاولات التذكر الفاشلة، فنهضت من الفراش على مهل، ومددت لها يدي، فأسلمتني الجواب بسعادة، ففضضته، وغرقت بين سطوره.

والخطاب كان فعلاً جواب تعييني مدرساً للغة العربية، في إدارة "بلقاس التعليمية"، وكنت قد نسيت تماماً، أني دخلت الجامعة، وحصلت على شهادة بتقدير عال، وتخرجت من زمن، أما "بلقاس" لمن لا يعلم، فهي جغرافياً تنتمي لمحافظة "الدقهلية"، أما في حقيقة الأمر، فهي تمثل مجرة مستقلة بذاتها، متفرعة من مجرّة "درب التبانة" التي تنتمي إليها الأرض بأسرها، وقرى مركز "بلقاس"، هي الكواكب -بالطبع!- التي تتكون منها المجرّة، من حيث البعد والتناثر والتشعب، "بلقاس"، يا ألف ليلة "بيضة"، ولسّه أما نشوف فين في "بلقاس" بالظبط!!"

وكنا ما نزال في إجازة آخر العام، وما زال أمامنا أكثر من شهر، حتى يبدأ العام الدراسي الجديد.

فتم توزيعنا على إحدى المدارس في مدينة "بلقاس" نفسها، لنداوم فيها بصفة مؤقتة، وكان أول القصيدة.. تربية فكريـــة!، فقد كانت المدرسة المصونة التي وزعونا إليها، مدرســـة تربيـــة فكرية، وكان وقتها امتحانات الملاحق، وقد أوكلوا إليّ -أول ما أوكلوا- مهمة المراقبة على طلاب المدرسة.

وكنت متحمساً ومنفعلاً بالطبع، باعتباره أول عمـــل لي، وأريد أن أفعل العجائب "وأسوّي الهوايل"، ومن ثم فقد دخلت اللجنة، بعيون نمر، وقلب صقر، وحواس فهد!!

ولكني لم أمكث كثيراً، حتى فوجئت أن عملنا كمـــراقبين اقتصر -فقط- على عملية تنظيم الغش، لا منعه لا سمـــح الله، فالمنع جريمة لا تغتفر!

وعندما حاولت الاعتراض، والشكوى، ورفـــض دخـــول أولياء الأمور مع أبنائهم إلى اللجان، بالحسنى واللـــين أولاً، ثم "بتنشيف الدماغ" والأيدي والأقدام ثانياً، كانت هذه جريمـــة أكبر من الأولى، فقد قامت الدنيا و لم تقعـــد، وبـــدأ الكـــلام يتصاعد بيني وبين المراقبين، والمشرف، ورئيس الدور، والناظر والطلاب، وأولياء الأمور، وطوب الأرض، وأنا أدافـــع عـــن وجهة نظري، بكل حماس وموضوعية، وأحاول إفهـــامهم أن

هذا ضد مصلحة الطالب، وأن علم التربيـــة وعلـــم الـــنفس ينصحان بترك التلميذ يواجه المواقف الصعبة بمفـــرده، حـــتى يكتمل نموه النفسي والانفعالي، فكانوا ينظـــرون لي نظـــرهم لمجنون!

ويناقشونني بهدوء، ثم بعنف، ثم "بقرف" وكراهية، وعداء، حتى ملّ الجمع الغفير مني، وبدأ الشرر يتطاير مـــن عيـــوهم، وبدأت الأيدي تتحرك في عصبية، مستعدة للفتـــك بي في أيـــة لحظة، وإلقائي من أقرب نافذة على مد البصر، ولكنهم عدلوا عن ذلك في آخر لحظة، لحكمـــة لا يعلمهـــا إلا الله، وهـــم يتوعدون بتقديم الشكاوى ضدي وإحالتي للمعاش المبكر!

وكان الحل الوحيد، أن سرحني الناظر، وقال لي:

- "اذهب يا ابني إلى بيتكم، هذه آخر مرة تراقـــب فيهـــا معنا"

وهكذا بدأتْ حياتي التعليمية الرائعة، بجـــريمتين كـــبيرتين، كادوا يحيلونني بسببهما إلى المعاش المبكر، وأنا "لسه ما اهتنتش بالوظيفة الميري"، إن كان في الوظائف الحكومية هناء!

وما كنت أدري أن كل ذلك، كان بروفة لما كان مخبئاً لي، وإنذاراً شديد اللهجة، ولكني لم أكن بالذكاء الكافي وقتـــها، لأفهم، وأتعظ، وأهرب بجلدي!!!

أين يقع مركز الكون؟

لو سألتني هذا السؤال قبل التعيين، لسخرت منك وهتفت:

- "وأنا أعرف منين يا عم؟"

أما لو سألتني اليوم هذا السؤال، لرددت عليك بكل ثقة:

- "طبعاً عارف فين مركز الأرض، إنه قرية (د) التابعة لمركز "بلقاس" حيث تم تكهيني -تعييني!- مؤخراً"

وهذه ليست مبالغة على الإطلاق، فلكي تصل إلى هذه القرية الرائعة، عليك بخوض غمار أكثر من أربع إلى خمس وسائل مواصلات في اليوم الواحد، مُنوّعاً في ذلك بين -ولا مؤاخذة- "العربات الكارو" بموديلاتها المختلفة، وعربات ربع ونصف النقل والنقل الكبير، والدراجات، والموتوسيكلات، وطبعاً أقدم وسيلة مواصلات عرفها الإنسان، قدميك، حسب ما تجده أمامك، وما توفره لك الظروف، بلا كبرياء شخصية، ولا "عنطزة" أبداً، رحلة ممتعة كما تلاحظ، لا تضاهيها رحلات السندباد البحري التي كان يقضيها في سفينة مريحة مع بحارة مطيعين!

وعليك أن تتعود ألا تلقي بالاً، لمحصول الألفاظ الراقية التي تظل أذناك تحصده طوال الطريق!، فهذا من مصادر الثروة اللغوية، وضريبة الاختلاط المبالغ فيه بالجماهير المطحونة!

والشطارة.. أن تصل إلى القرية وجسدك قطعة واحدة، فلا تنس يداً في تلك العربة، أو عيناً في غيرها، فسوف تحتـاج إلى كل هذه الأعضاء في مهمتك الشاقة الآتية.

ها قد وصلت بالسلامة، لا تنفض غبـار الطريـق عـن ملابسك الآن، فما زال أمامك حوالي ثلاثة كيلـو متـرات، تمشيها لتمرن قدميك، وتستفيد من الرياضة الصباحية، وهـذا يقوي ضربات القلب، ويوسع مجرى التنفس كما تعلم!

المدرسة، أخيراً، تلوح على المدى، كالغريق الـذي يتعلـق بقشة، تتنهد، فقد آن الأوان لتنال قسطاً من الراحـة، بعـد هبوطك -شبه سالم- على سطح القمر!

ولكن جرس الحصة لا يمهلك كثيراً، إذ سرعان ما يـدوي، داخل رأسك تماماً، ليذكرك بحصتك العزيزة، فتبدأ رحلة صعود السلم إلى الدور الثالث، وكلك حماس وحيوية ونشاط، بعـد هذه الوجبة الدسمة من التمارين الرياضية الإجباريـة، لتـشرح الدرس.

والطلاب في مدرستنا الإعدادية على ستة أقسام:

القسم الأول: الذي يعتقد أن المدرسـة مكـان للراحـة والاسترخاء وطرقعة الأصابع والفرفشة والاحتماء مـن حـر الشمس!

القسم الثاني: الذي يعتقد أن المدرسة من أجل تبادل وجهات النظر -بالذات أثناء الحصص- مع زملائه حول أخطر القضايا التي تؤرق جماهير الشعب المصري، من كرة قدم وأفلام وآخر أغنية و"كليب" و"موديل لبس"!

القسم الثالث: الذي يعتقد أن الحضور للمدرسة، هو الطريق الوحيد المؤدي للفسحة، فهو يتحمل كل شيء وأي شيء من أجل الفسحة المقدسة!

القسم الرابع: الذي يعتقد أن المدرسة تساعده على تقوية جسمه وعضلاته، من حيث توفير المادة الخام للضرب والشجار وهم أصحابه التلاميذ طبعاً!

القسم الخامس: الذي يعتقد أن المدرسة عبارة عن مطعم كبير، توفر له الغذاء الصحي المفيد والمتنوع للجسم، والذي يحصل عليه بالمجان من زملائه، اتقاءً لشره وبطشه!

والقسم الأخير: الذي يعتقد أن المدرسة ربما تكون للعلم، وهذا النوع من الطلاب لا يعمّر طويلاً، إذ أن مواصفاته غالباً ما تكون: الضعف الجسدي، والقصَر، والطيبة، والهدوء، مما يجعله فريسة سهلة ومحببة، للسادة آكلي لحوم البشر في فصله، إن لم يكن في مدرسته كلها!!

وغالباً ما تنتهي حياة هذا الطالب مبكراً، إما بالموت حرقاً بيد زملائه في مظاهرة شعبية، تطوف أرجاء المدرسة، أو

بالانتحار، بعد انفجار خلايا مخه، من كثرة البكاء حسرة على ضعفه، وسخرية زملائه المتكررة منه.

والقلة الباسلة المحظوظة التي تنجو بصعوبة، من إرهاب الصبية الصغار، فهم يُوصلون الليل بالنهار، طوال مشوارهم التعليمي، لا يكّلون ولا يملّون، ويدخلون كلية التربية ويتخرجون فيها بتفوق، ثم يجلسون على الرصيف خمس أو ست أو عشر سنوات، حتى يأتيهم التعيين -إذا أتى!- مدرسين في إحدى القرى النائية، ليأخذوا ١٦٠ جنيهاً بالحوافز، ينفقونها على المواصلات، فيكونون بذلك قد انتصروا على كل الصبية المشاكسين الذين أذلوهم في الماضي، وتربعوا فوق عرش المجد!!!!!!

ورغم كل شيء، كان عليّ أن أبدأ الحصة، بعد كل هذا التعب والمجهود، ومع كل هذه الفئات والنفسيات، وأن أوصل لهم المعلومة كاملة غير منقوصة، وأن يفهموا ويستوعبوا، وإلا أكون مقصّراً، ولا أستحق "بدل الشحاتة" الذي تتصدق عليّ الحكومة به شهرياً!!!!!

أخطاء شائعة يرتكبها الكبار!!

ورغم أننا كبار، إلا أننا مازلنا جهلاء، لا نستطيع كتابة قطعة نثرية بلا أخطاء إملائية، خذ عندك مثلاً كلمة "التراب"، نكتبها جميعاً بالتاء، ولكن لعمري إنه لخطأ فادح وبشع!

فعندما أمليتُ الأولاد العباقرة هذه الكلمة، ضمن موضوع الإملاء، فوجئت أن أكثر من نصف الفصل قد كتبها "الطراب" بالطاء، ولكني لم أنفعل، و لم أهتز، فلم يعد لدي أعصاب أنفعل بها، وتمهلت، وقلت لن أصححها لهم الآن، قبل أن أسأل أهل البلدة القدماء الجهابذة، إذ ربما "سلو بلدهم كده"!

وخذ عندك، في درس "أدوات الشرط الجازمة"، وجدت أن معظم الطلاب، قد أسقط حرف الألف من كلمة "الجازمة"، فأصبح عنوان الدرس حسب مذهبهم: "أدوات الشرط الجزمة"، ولكني كالعادة اعتقدت بوجود خلافات شخصية، بين الطلاب وهذا الدرس، وقد وجدوها فرصة سانحة للأخذ بالثأر!!!، فلم أنفعل و لم أهتز.

وعندما جاء الدور على حصة "التعبير"، كان عنوان الموضوع "مثلي الأعلى"، حيث من حق كل طالب أن يكتب

عن شخصية أو أكثر، يعتقد أنها مثله الأعلى، فوجدت أغلب الطلاب يكتبون كلمة "مثلي" بالسين، لتصبح "مسلى الأعلى" و"مسلى" هذه والله العظيم تعني "السمن"، الذي يستخدم في أمور الطهي، وعلى هذا يكون عنوان الموضوع إعلاناً عن نوع جديد من أنواع السمن النباتي، اسمه "الأعلى"!

ولم أنفعل، ولم أهتز، إذ ربما الأولاد يودون الاشتغال في الدعاية والإعلان عندما يكبرون!!!!!

وكله "كوم"، ولما تهورت -أنا اللي أستاهل!- وسألت طالباً في حصة النحو "كوم" آخر، فقد أردت -من تغفيلي!- أن أعرف إعراب كلمة "وطن"، في جملة "وطن الإنسان محبوب"، فما كان من الطالب الألمعي، الذي اخترته للإجابة، إلا أن وقف بكل فخر، كأسد انتهى لتوه من إحراق عشر غابات "من بابها"، على من فيها، وهرش قليلاً في رأسه، وهو ينظر للكلمة التي على السبورة بذكاء، ثم ضيّق ما بين حاجبيه قليلاً، دلالة التفكير العميق، ولم يلبث أن ابتسم ابتسامة العليم ببواطن الأمور، وقد توصل إلى الحل الصعب، الذي أزهق الأرواح، ودوّخ العقول، وأوقف الأرض عن الدوران، وقال في استهتار:

- "وهي دي حكاية يا أستاذ الـ"و" حرف عطف طبعاً، و"طن": وحدة وزن معروفة، دي حاجة سهلة خالص"!!!!

الذي يأكل الورق ويضيء في الظلام!

انهمكتُ في الشرح، وانهمك التلاميذ -أو هذا ما أظنه- في محاولة الفهم، وكان الموقف عصيباً بحق، فكيف يُرفع الفاعل مرة بالضمة إذا كان مفرداً، ثم لا يلبث أن يغير من موقفه كلّية، ويُرفع بالألف، لمجرد أنه جاء مثنى؟! ما هذه الازدواجية واللعب على الحبلين!! لم يعد في الدنيا أمان إذن!!

والكل على أعصابه، يحاول أن يعصر خلايا مخه للاقتناع بهذه الحقيقة المستحيلة، ولكن مخه يأبى أن يرضخ لهذا الظلم، ويسلم بهذا النصب الذي يمارسه الفاعل بدون وجه حق لمجرد أنه "فاعل":

- "يا إخوانّا أنا مش هغشّكم، والله العظيم الفاعل بيترفع بالضمة وهو مفرد، وبالألف لو مثنى"

فيهزون رءوسهم جميعاً في عدم اقتناع، ويقف طالب شجاع، يحمل إلي وجهة نظر الجماهير الغفيرة، فيقول:

- "ازاي بس يا أستاذنا، وهي دي حاجة تدخل العقل برضه، ما هو يا بالضمة، يا بالألف".

وأعيد الشرح مرات، وأدعم وجهة نظري بالكتاب المدرسي، وأحاورهم وأداورهم، وأكتب مزيداً من الأمثلة، ولا فائدة!

وفي لحظة مباغتة -وعلى غير توقع- يصل لمسامعنا جميعـاً صوت خرفشة مزعج، فألتفتُ، ويلتفت معي معظم الطـلاب، للتختة الأخيرة، حيث الطالب "شريدة"، وهو يمضغ شيئاً بفمه، فأنفعل وأغضب بشدة، أصرخ فيه أن قم، فيقوم بهدوء، وبـلا أي انفعال على الإطلاق، وكأني أدعوه لنزهة على "كـورنيش النيل"، أصرخ فيه:

- "بتاكل لب في الفصل يا "شريدة"؟ ده وقته برضه؟"

فيقول بلا مبالاة:

- "لب؟ لب إيه يا أستاذ؟"

فأصرخ فيه:

- "أمال إيه اللي في بقك ده؟..انطق.. "

فيجيبني ببراءة:

- "ده ورقة يا أستاذ"

ويعود فمه للمضغ، وأرى هذه المرة في فمه فعلاً، قطعة من الورق، يلوكها في استمتاع عظيم، ولا مبالاة عجيبة، فأحدق فيه مدهوشًا وأتمتم:

- "ورق، بتاكل ورق يا "شريدة"؟"

فيقول:

- "وهو أكله حرام يا أستاذ؟"

فأهتف:

- "يا ابني أنا ما شفتش حد غير "المعيز" بياكل الـــورق ده إنت "معزة" ولاّ "بني آدم"؟.. ما تفهمنا"

فلم يستوعب، وظل يحدق نحوي ببلاهة منقطعـــة الـــنظير، فنظرتُ نحو الطلاب، ورفعتُ يدي محذراً وقلت لهم:

- "كل واحد يخلّي باله من كراساته وكتبه، أنا بحـــذّركم أهه، عشان ما حدش يجي يقول لي إن الواد ده أكل حاجته"

ثم التفتُ إلى "شريدة"، أقول له في هدوء:

- "وده بتاخده عرق ولا عضل يا "شريدة"؟"

فلم يفهم بالطبع وواصل المضغ، عدت أقول:

- "طب حاولت تتعالج يا ابني؟"

نفس النتيجة، لا يبدو عليه أي أثر للفهم..

- "هل تفضل نوع ورق عن غيره، ورق كتب النحو مثلاً، ألذ من ورق كتب القراءة؟"

لا رد..

- "وطبعاً بتحلّي بالورق الملون"

أيضاً لا رد، وكنت قد وصلت لقمة غلياني فصحت فيه:

- "اقعد يا "شريدة"، وخلي الأكل ساعة الفسحة أحسن لك"

والتفتُ للطلاب، لأواصل المعركة الخاسرة:

- "الفاعل المفرد بيترفع بالضمة، ولما يبقى مثنى بيترفع بالألف"

ولا يبدو أبداً أن هناك أملاً في إقناعهم، حتى قال لي طالب فجأة:

- "حاكم "شريدة" ده يا أستاذ، بينوّر في الضلمة، أول ما النور يقطع بتلاقي عينيه منورة زي القطط"

فتوقفتُ عن الشرح فجأة، والتفتُ إلى "شريدة" ثانية في خوف، وقلت في نفسي: "يا نهار إسود، الواد باين عليه راكبه "عفريت"، الأحسن الواحد ما يزعلوش، هو إذا سلّط عليّ "عفريته"، مرتبي هيكفّي المواصلات، ولا العلاج من العفاريت؟!"

وعند هذه النقطة، ابتلعتُ ريقي في صعوبة، ثم قلت لـ"شريدة"، بكل أدب هذه المرة:

- "اتفضل قوم يا شريدة"

فقام "شريدة" على مهل كعادته، وكنت أريد استرضاءه بأي ثمن، فقلت له متودداً:

- "إيه رأيك يا "شريدة" في موضوعنا؟"

فرد ببلاهة:

- "موضوع إيه؟"

قلت له بصبر:

- "موضوع الفاعل اللي بيترفع بالضمة لما يكون مفرد وبالألف لما يكون مثنى.. هه.. موافق على الكلام ده؟"

فهرش في رأسه قليلاً وقال:

- "لأ طبعاً يا أستاذ.. إنت عايز تغلطني ليه؟.. الفاعل طول عمره مجرور بالفتحة"

فصحت من شدة البهجة، وأنا أسمع صوت انفجار أجهزتي الداخلية جهازاً جهازاً، وتحول مخي إلى "مهلبية":

- "برافو "شريدة"، حيّوه يا أولاد، أهو إنت كده حليت الإشكال ببراعة"

وصفق التلاميذ لـ"شريدة" العبقري، وقد سرّهم أخيراً، أننا وصلنا لحل وسط، وأنا أهرول من الفصل قبل أن تنتهي الحصة، حتى لا أسقط ميتاً بالسكتة القلبية!

الأخوان رحباني

أحدثكم اليوم عن "الأخوين رحباني"، ولا يسرحنّ بكم الخيال إلى "الأخوين رحباني"، الذين كانا مع المطربة الجميلة "فيروز"، وإنما هما طالبان من طلبتي العباقرة، شديدا الذكاء والألمعية، إلى درجة تتخطى حدود البشر، وسبب إطلاق هذا الاسم عليهما، هو الاختصار وضيق الوقت دائماً، إذ هما في الهم سواء، في كل شيء، يجلسان معاً، لا يحضران الكراسات معاً، يتكلمان معاً، ويُضربان معاً كذلك!

وكلما أردت توجيه نصيحة لأحدهما، كانت هي بعينها التي يحتاجها الآخر، فكان من الأسهل لي دائماً أن أقول "الأخوان رحباني"، ثم أقول ما أريد قوله فيكون لهما معاً.

و"الأخوان رحباني" ينتميان في الأصل إلى بني البشر، تشريحياً على الأقل، ولكن لاشك أن تحت المظهر البشري الواضح، تكمن جينات حيوانية متأصلة، إذ ما من مرة أدخل فيها الفصل عليهما، إلا وأحدهما إما ينبحان، أو يمـوءان، أو يصهلان، أو ينهقان، أو يحبوان على أربع، باستمتاع غير عادي، وعندما أزجرهما، يتوقفان على مضض، وكأني حرمتهما متعة جارفة من متع الحياة!!

وفي الفسحة، كل ألعابهما مع أصحابهما، تدور حول لعبة العربة بالحمار، أو الثور الذي يدور في الساقية، وكان دوراهما في اللعب طبعاً: إما الثور وإما الحمار!!

وعندما يتشاجران مع أحد، فوسيلة الهجوم المحببة لديهما - بالطبع- إما الرفس أو النطح!!

ثم امتد الموضوع لأكثر من ذلك ذات يوم، وقد جاء لي طالب ذراعه غارق في الدم، وهو يصرخ ويولول، ويقول لي إن أحد "الأخوين رحباني" هو الذي عضه، والآخر هو الذي أمسكه!!

وكان عليّ أن أتوقف قليلاً، أمام هذه الظاهرة اللافتة، لأجيب عن بعض الأسئلة الصعبة والشائكة، هل "الأخوان رحباني" هما الحلقة المفقودة في تاريخ التطور الإنساني الذي أرّق منام آلاف العلماء؟ أم هي ظاهرة الاندماج بين الخصائص البشرية والحيوانية في أجلى صورها؟ أم أنه تأثير البيئة الزراعية الممتلئة بنماذج عديدة لمختلف أنواع الحيوانات؟ أم أن الأمر كله لا يعدو مجرد كونه شقاوة عيال؟

وأخبرت ناظر المدرسة بملاحظاتي، وأني أخشى من وجودهما في الفصل بين بقية التلاميذ، فلم يهتم، وأخبرت الأخصائي الاجتماعي، فابتسم بلا مبالاة، وأخبرت مدرساً في المدرسة، فضحك حتى استلقى على قفاه وقال لي في سعادة:

- "وهو فيه طالب مش حيوان؟"

ولم يبقَ أمامي، إلا أن أرفع يدي عن الموضوع كلية، وأتركهما وشأنهما.

حتى أتى اليوم الذي ظل الناس يحكون عنه طويلاً، فقد جاء "الأخوان رحباني" متأخرين كالعادة عن طابور الصباح، ووقفا مع بقية زملائهما المتأخرين، وكان الناظر يضرب هؤلاء بنفسه في هذا اليوم، ولما رأى "الأخوان رحباني" العصا الطويلة الرائعة، بديعة الصنع، نظرا إلى بعضيهما البعض نظرة ذات معنى، وصمما معاً، على ألا يضربا بها، مهما حدث، وبدأ التفكير في كيفية الاحتيال لتنفيذ ذلك.

وعندما جاء الدور على أولهما، غمز لزميله، فأسرع فجأة وأطلق نباحاً هائلاً، وانقض على ذراع واحد من الواقفين إلى جواره، وعضه بقوة، جعلته يصرخ، ويرتمي على الأرض مولولاً، و"الأخوان رحباني " معاً، وفي تناغم بديع، وتنسيق مدهش، يطلقان نباحاً طويلاً معبراً، وفزع الناظر، وألقى العصا من يده فوراً، في خوف، وتراجع للوراء كثيراً، وهو يرى "الأخوين رحباني" يترلان على أربع، وينبحان بكل براعة، "ولا أجدع كلب عريق في الكلبية"، وتذكر الناظر ساعتها حكاياتي، وقد أصبح متأكداً الآن مما قلته له، فأسرع يستدعيني بعينيه، وقال لي وهو ما يزال يرتعش من "الخضة":

- "العيال دي خطر، مش لازم يقعدوا في المدرسة أكتر من كده، ابعت هات عربية الكلاب تلمهم!!"

وأنا لا أكاد أتمالك نفسي من الضحك، وأهمس في سري:

- "الحمد لله إنها جت منك".

ساعة مطر

كان الشتاء يدق الباب على استحياء في مدينتا، فيبعث أولاً بعض القطرات الرقيقة المنعشة ذات صباح، تستأذن الناس، ثم بعدها بقليل، يرسل وفوداً من النسمات اللطيفة تداعب وجوههم في حنو، وتخبرهم عن مقدمه ليستعدوا.

أما عندما وصلت إلى قرية (د) اليوم، فكان الشتاء قد اقتحم الأبواب والشوارع والطرقات، بكل عنف وجبروت، وأعلن ملكوته بضراوة، حتى أصبحت القرية غارقة في مستنقعات المياه، مثل مدينة "البندقية" الإيطالية، مع الفارق بالطبع!

وتأملت الطرق الترابية التي أصبحت طينية خالصة، والبيوت المتسندة إلى بعضها البعض، المتلفعة بالصمت، والناس القلائل، الذين اضطرهم سوء حظهم إلى الخروج في مثل هذا الجو المتقلب.

أفواه السماء جميعها مفتوحة، المطر يهطل بغزارة وإصرار وتحد، الهواء الشديد يحاول اقتلاع البشر والأشياء من أماكنهم، وجسدي يتأرجح بمنتهى الليونة مع الهواء، وأنا أفكر كيف أصل للمدرسة؟

واضطررت للانتظار طويلاً، حتى كفت السماء أخيراً عن البكاء، ثم توكلت على الله سبحانه وتعالى، وبدأتُ الرحلة الشاقة، كان عليّ القفز من حين لآخر فوق العديد من حقول الألغام، أعني الحفر المليئة لآخرها بماء المطر، كما كنت أضطر في أحيان أخرى للتسند على بعض الجدران، محاذراً أن أسقط على الأرض الزلقة بشدة، والمغامرة الكبرى، هي محاولاتي المستميتة لتجنب الماء العَطِر الهاطل، من مواسير صرف الأمطار المثبتة فوق أسطح المنازل، المحدّقة نحوي في شراسة وتحفّز!

لماذا بَعُدَتْ المدرسة إلى هذه الدرجة؟

وفجأة تجد أحدهم، إلى جوارك تماماً، راكباً حماره الأدهم، ينطلق به -رغم وعورة وضيق الطريق- كالفارس المغوار، والأسد الجبار، يمرق بجانبك بسرعة، فيغرق ملابسك ووجهك وروحك نفسها بالماء، ثم لا يمنعه كل ذلك من الصياح بأعلى صوته:

- "صباح الخير يا أستاذ، اتفضل معانا"

وسرعان ما يختفي قبل أن تفكر في التشاجر معه والتهام حنجرته لتُشفي غليلك!

ولا يخلو الأمر بالطبع من بعض الأولاد الصغار، الذين يعتبرون المطر والطين، احتفالاً خاصاً أعدته السماء من أجلهم، فيتجمعون عارين أو يكادون، يقذفون بعضهم البعض بحفنات من الطين والمطر في استمتاع وتلقائية، ولا تلبث إحدى هذه الحفنات البديعة أن تستقر في وجهك طبعاً!!!!، ثم عليك بعد ذلك التحلي بالصبر والابتسام، ومواصلة الطريق في فرح وبهجة، فهم مهما كانوا مجرد أطفال صغار يلعبون!

والمدرسة لا تريد أن تأتي أبداً!

كم مرة كادت قدمي تزلّ!، وكم مرة كدت أغرق بالمياه الهاطلة من البيوت!، كم من طرق جانبية سلكت، واكتشفت، وعاينت!، وكم من بقع طين لطيفة سكنت ملابسي!، ولكن الله سبحانه وتعالى سلم بطريقة أو بأخرى، حتى وصلتُ أخيراً إلى المدرسة، وأنا في قمة الإعياء.

كان الصمت -على غير العادة- مسيطراً، حتى قلقت، ولم أنتظر حتى أستريح من الإرهاق الشديد الذي يلفني، والصداع الذي بدأ يدق رأسي في إصرار، فذهبت إلى حجرة الناظر، لا أحد!، حجرة المدرسين، لا أحد!، حجرة الإداريين، المعمل، الفصول، لا أحد على الإطلاق في المدرسة!، من الذي فتح المدرسة إذن؟ وأين اختفى الجميع؟

هل نزلت سفينة فضاء بغتة، واختطفتهم جميعـاً لإجـراء تجارب قاتلة عليهم وأراحتنا منهم؟

أم أن صاعقة من السماء نزلت عليهم بظلمهم، فأبادهم الله جميعاً برحمته؟

أم هل يكون اليوم هو الجمعة، وقد اختلط علـيّ الأمـر، ونسيت أنه عطلة رسمية؟ أم ماذا بالضبط؟.

وظللت أتخبط في حيرتي، لا أرسو على بر، ولا أستقر على فكر، حتى لمحتُ أحد العمال يتهادى من بعيد فناديتـه، ولـما اقترب مني، وتبين ملامحي، تعجب بشدة، وقال لي:

- "خير يا أستاذ إيه اللي جايبك النهارده؟"

فقلت بدهشة:

- "إيه اللي جايبني، الشغل طبعاً، فين النـاس؟"، فابتـسم ببلاهة وقال:

- "في بيوتهم"

فقلت في غضب:

- "والمدرسة؟"

فابتسم لسذاجتي وقال:

- "أصل نظامنا هنا اليوم اللي تشتي فيه جامد كده ماحدش بيروح المدرسة هم مافهمُكش كده ولا إيه؟"

فنظرت إليه في غل وغيظ، وأنا أقاوم رغبتي الشديدة في فقأ عينيه، ثم -في النهاية- أوليته ظهري، وأنا أُرغي وأزبد وأواري كسوفي وحنقي، وأقول:

- "لا قالوا لي طبعاً، بس إنت كنت واحشني قوي، فقلت أخطف رجلي أشوفك، وأرجع تاني!!!"

مواعيد دق الجرس

إنها امتحانات منتصف العام، حصاد ما أسلفنا من الجهد والعرق والاجتهاد، وكشف حساب مفروض علينا بحكم الوزارة والقانون والمجتمع والناس، وبروفة مصغرة لمسرحية آخر العام الكبيرة!

وفي كل مرة في نفس هذا الوقت، تنتابني نفس الأفكار، وتهاجمني نفس الكوابيس، وأدخل مع نفسي في حوار طويل ومرهق، ولا أدري أين الصواب وأين الخطأ فيه! وما الذي يجب عليّ أن أفعله؟!

هل أترك للطلاب حرية الغش حتى لا يرسبوا، ويوجعوا قلوب آبائهم وأمهاتهم الذين صرفوا عليهم من قوتهم وحرموا أنفسهم من أجلهم؟

أم أشدّد عليهم ليتعودوا الاعتماد على النفس، والعمل الجدي ويأخذ كل ذي حق حقه بما يرضي الله سبحانه وتعالى وينال المقصّر عقابه وأي عقاب!

وتبدأ اللجنة في الموعد المحدد لها تماماً، في تمام الثامنة، ويدخل شريكي في المراقبة، عابس الوجه وغاضباً، لسبب لا

أدريه، وكنت أشفق في سري على الطالب الذي يدفعه سوء حظه للنظر لوجه زميلي، في هذه اللحظة، فتحتبس الإجابات -بفرض وجودها- في حلقه من فرط الرعب!

وبدأنا عملية توزيع أوراق الإجابة، وتحذير الطلاب من الكتابة بغير الأزرق، والتأكد من رقم الجلوس والاسم، وعشرات التفاصيل الصغيرة من وجهة نظري، والخطيرة جداً والمصيرية من وجهة نظر التربية والتعليم!

وجلستُ على كرسي في أول الفصل، أراقب سير الامتحان وأتأمل وجوه الأولاد بتأن، فأجد نفس النظرة الخائفة المرعوشة، التي كانت ترتسم على وجهي وأنا أمتحن، نفس هزة الأصابع الممسكة بالقلم بالكاد، ونفس حبات العرق التي بدأت تزحف لتملأ الوجوه، ونفس حركة حك الأصابع بالرأس في قوة، كأنما يهز نخلة الرأس لتتساقط ثمار الإجابة!!

فالامتحان له رهبة يا إخوانا، والبليد جداً "يخاف موت"، والشاطر جداً "يخاف موت" أيضاً، ولكلٍ مبرراته، وطريقته المبتكرة في التعبير عن هذا الخوف!

وألمح بنتاً "مفعوصة" سقطت "توكتها" على الأرض، فتركت الامتحان بلا تردد، وانحنت لتلتقط "التوكة"، وراحت تضبطها في شعرها باهتمام أنثوي، يفوق اهتمامها بالامتحان

نفسه، فأبتسم، لهذه الإرهاصة الأنثوية الباكرة من حواء الصغيرة!

ولا ألبث أن أتأكد أن "أينشتاين" كان عبقرياً، وأنا أرى نظريته النسبية تتحقق بأجلى صورها وقت الامتحان، فبالنسبة لي، تبدو الساعة وكأنها تَنْصُب عليّ، فما تكاد تمضي دقيقة واحدة، وألمحها بعيني وقد مضت، حتى تمد الساعة عقربها فجأة وتلهف هذه الدقيقة للوراء ثانية!!

أما بالنسبة للطلبة، فالوقت أسرع من صاروخ عابر للقارات لا يُبقي ولا يَذَر، والجميع على أعصابه، يختلس النظر نحوي من حين لآخر، أو لزميلي الذي ما يزال يتسلى بتكشيرته، ويمارس دور الرجل الخطير من حين لآخر، بإطلاق صيحة تحذير مدوية من نوعية: "ها ظبتك"، أو: "ارفع إيدك وسلّم اللي معاك"، وأنا أتظاهر بأني لا أعبأ بكل هذا الهراء.

وأسمع همهمة خافتة تأتي من قريب فأمد أذني وبصري، لأجد أحد الطلبة العفاريت، يرفع يده بضراعة مبالغ فيها، وتذلل لله وأدب، لم أرَ سماته عليه طوال السنة، وهو يهمس في يقين ورجاء:

- "اللهم قرب ورقة زميلي مني، وأبعد عيون المراقبين عني"

فلا أملك إلا أن أبتسم، وأقوم من جواره قليلاً، علّه يتنفس الصعداء، ويكون الله قد حقق له جزءاً من الدعاء!

وأردتُ أن أسرّي عن الطلاب قليلاً، لأرخي أعصابهم المشدودة فقلت لهم بود:

- "الامتحان صعب يا أولاد؟"

وكان الرد المتوقع:

- "جداً جداً يا أستاذ"

والامتحان لابد أن يكون صعباً طبعاً، من وجهة نظر كل الطلاب، فلم يُخلق بعد الامتحان الذي يكون سهلاً، وكيف يكون امتحاناً إذن؟

وأحد الطلاب يهتف بحماس كأنه في مظاهرة بالسلاح أيام ثورة ٥٢:

- "كله من بره المنهج يا أستاذ، عالم ماعندهاش رحمة"

وأذهب إليه، وأُطيّب خاطره:

- "بس ركز شوية يا ابني"

وفجأة، أحس أن خللاً ما قد حدث في الصورة، فقد خيّم على الفصل ظلّ كثيف، أحسست معه باختناق الضوء وفراره من المكان، و(شفط) كل ذرة هواء كانت بصحبتنا، فألتفتُ مندهشاً لأجد عم "مرسي"، العامل بالمدرسة، على باب اللجنة، وهو ينظر إليّ بتركيز، بعينيه الحولاوين، وينادي بصوته الأجش الضخم كجسده:

- "ثانية يا أستاذ"

فأذهب إليه مُرحّباً، فيسحبني كلي من يدي، وأجـــد أننـــا بقدرة قادر، قد أصبحنا على السلم السفلي، حيث الـــصمت والخواء، وازداد ضغط أصابعه على معصمي، وازدادت عينـــاه حولاً كناية عن أن ما سيقوله كلام خطير:

- "حاكم أنا طالب منك معروف مش هنسهولك أبداً"

- "خير يا عم مرسي؟"

- "أصل الواد ابني عندك فوق في اللجنة وهو يعني ضعيف حبتين في العلوم"

- "بس دول بيمتحنوا دراسات دلوقتي يا عم "مرسي"!"

- "مايضرش، ما هو برضه ضعيف حبتين في الدراسات"

- "وأنا أقدر أعمل لك إيه بس؟"

- "لا، تقدر ونص، ده إنت الخير والبركة كلها، يعني ولو فيها (رزالة) مني، الورقة دي توصلها له، الله يسترك، ده ابـــني الوحيد وصرفت عليه دم قلبي".

وصعب عليّ الرجل، بطوله وضخامة جـــسده، وضـــراعته ورقة حاله، وجعلتُ أردد النظر بينه وبين الورقة المطوية الـــتي أخرجها من جيب جلبابه القديم، وأحاول التملص منه بكـــل الطرق ولكنه كان يزداد ضراعة في كل مرة:

- "يا بيه أجيب منين لو سقط، ده هو كل اللي حيلتي الله يسترك، إنت عايزه يطلع جاهل زيي؟"

وأخذت الورقة منه على مضض، وأنا أكاد أموت إحراجاً، وألعن الظروف السيئة التي اختارتني لهذا الموقــف الغريــب، وصعدت اللجنة، وفي الخفاء غافلــت زميلــي، كالحراميــة، وأعطيت الورقة للولد، وأنا أكاد أذوب خجــلاً، وقلــت في نفسي "ورقة تفوت ولا حد يموت"، ومــا كنــت أدري أني بسبيلي لفضيحة "بجلاجل" في طــول المدرســة وعرضــها، والمدارس المجاورة أيضاً!

فعم "مرسي" لمن لا يعرف، لا يجيد القراءة والكتابة طبعــاً، وهو المسئول عن ضرب جرس المدرسة في وقت الامتحان، أو الفسحة، وكل ذلك يأتي من الإدارة التعليمية، في جدول رسمي مختوم، يضعه عم "مرسي" دائماً في جيبه، ويجعل أي واحد من المدرسين يقوم بقراءته عليه، حتى ينفّذه، والرجل بدلا مــن أن يعطيني ورقة حل أسئلة الامتحان، أعطاني... هــا، مــاذا في رأيكم؟

طبعاً ورقة "مواعيد دق الجرس"، والولد بمــا أنــه حمــار "حصاوي"، عريق في "الحمورية"، وحاصــل علــى أوسمــة وبطولات عالم فيها، فما صدق أن رآني أعطيه الورقة، حــتى

"أخذ في وشه وهاتك يا نقل بالمسطرة"، وبما يمليه عليه ضميره، حتى إنه لم يُفلت ولا كلمة واحدة مما كان في الورقة!

وفي نفس اليوم، عندما حان وقت التصحيح، وجد المدرسون أمام أعينهم، ورقة غريبة، في مقدمتها عنوان جذاب هو "مواعيد دق الجرس"، ثم سرد تفصيلي أمين لهذه المواعيد، "في الساعة الثامنة دقتان، والثامنة وخمس دقائق دقة واحدة"!

كما وجدوا -بلا فخر- اسم الإدارة التعليمية في قمة الورقة، واسم رئيس اللجنة كذلك، والذي منه!!

وكان يوماً ولا ألف ليلة، وطبعاً رسب الولد بجدارة، وليس هذا فحسب، ولكن الولد الناصح حكى لزملائه عما حدث، مبرراً سقوطه بأن الخطأ كان مني أنا بالقطع!، إذ كان من الواجب عليَّ أن أتأكد أولاً من أن الورقة تحتوي على حلول نموذجية ووافية قبل أن أعطيها لسيادته!!

والغريب أنه أقنع والده بهذا الرأي أيضاً، فكنت كلما قابلت عم "مرسي" بعدها، ينظر نحوي في غل وغضب، ويبرطم ورائي:

- "أساتذة آخر زمن، منك لله وديت الواد في داهية"!

الوجه الآخر للعملة!

وبعد فضيحة مواعيد دق الجرس إياها، صممت أن أحارب الغش بكل ما وسعني من جهد، وألا أجامل أحداً في هذا الأمر أبداً بعد اليوم، وعندما دخلت إلى اللجنة بعدها بوقت قصير، كنت متحمساً لكسر رقبة أي طالب، يفكر مجرد فكرة في الغش، وبيني وبين نفسي، رحت أتصور فنون العذاب الإغريقي، الذي أنوي إيقاعه، بمن أضبطه بعيني الثاقبة وملاحظتي الوثابة، والوقت يمضي، والطلاب صامتون، ولا أحد يغش أو ينظر إلى جواره، ولا أحد يغيّر من جلسته، أو يكتب على المسطرة، حتى فقدتُ أعصابي، وثرتُ عليهم في قرارة نفسي مزيداً من الثورة!

ورحت أتجول قليلاً في الفصل، حتى ارتخت أعصابي رويداً، وبدأتُ أشعر أن لا شيء في الحياة يستحق!، وفجأة، لمحته، الخبيث، كان ينقل من كتاب كامل، موضوع بطريقة فنية، عالية الحبكة في "الدرج"، بحيث ينقل منه كيفما شاء، ولا أتمكن من كشفه بسهولة في نفس الوقت، وقمتُ من مكاني متحمساً، وقد أخذتني الجلالة، وأنا أُرغي وأُزبد، وأنقضّ على الطالب، لأنتزع منه الكتاب، كالأسد الهصور والنمر الجسور!!

وفُزع الطالب وهو يراني فوق رأسه، وانـــتفض واقفـــاً في مكانه وهو يحاول منعي باستماتة، من إلقاء النظر إلى "الدرج"!

ولكن هيهات، وأمسكت بالكتاب، وأنا أرفعه أمام عيونـــه في انتصار وأُلوّح به في حماس، والولد كان قد فقد النطق مـــن زمن، واحمر وجهه بشده، ورأيت النَفَس يَخــرج مـــن فمـــه متلاحقاً مأزوماً، ويده ترتفع أمـــام وجهـــه وكأنـــه يواجـــه "دراكولا" أو "بروسلي" على أقل تقدير!!

- "ممكن سيادتك تقول لي إيه ده؟"

- "كتاب يا أستاذ"

- "وبتعمل بيه إيه سيادتك؟"

- "أبداً.. عادي يعني.. براجع منه"

- "والمراجعة بتبقى وقت الامتحان برضه؟"

- "العلم نور يا أستاذ، وملوش زمـــان ومكـــان، مـــش حضرتك دايماً تقول لنا كده؟"

- "بس مش في الامتحان يا ناصح، أنا هخرب بيتك.. أنا هلغي امتحانك"

والولد بدأت عيناه تدمعان، ومعهما يدق قلـــبي بـــشدة، وبدأت أفيق، ماذا فعلت بهذا الولد؟ وكيف عاملته بكل هـــذه

القسوة؟ إنه يكاد يموت أمامي من الرعب، ولكنه يكابر ليس إلا، وكنت قد قررت أن أوبّخه قليلاً، ثم أحتفظ بالكتاب إلى نهاية الامتحان وأنهي الموضوع عند هذا الحد، وقلت له:

– "المرة دي سماح، أنا بس هاخد الكتاب، لكن المرة الجاية، إنت حر، هطردك بره"

وكنت أتصور أنه سيفرح، ويغني ويرقص بعفوي عنه، وأنه سيجلس فوراً، ويظل يتذكر هذه الخدمة الجليلة طوال العمر، ويحكيها لأبنائه وأبناء أبنائه، وتتحول بطولتي وتضحيتي لقصة أسطورية، تُغنّى على "الربابة" إلى جوار المدفأة ليلاً، جنباً إلى جنب مع قصص "أبي زيد الهلالي سلامة"، وأخينا "الزير سالم"، و"عنترة".

وبدلاً من ذلك، بدأتُ ألمح علامات تمرد على وجهه، تتجمع وتتكاثف، رويداً رويداً، وشعرت بأن الولد الصغير يتوحش، ثم لم يلبث أن مد يده نحوي فجأة، وبسرعة مذهلة خطف الكتاب!!

وجن جنوني طبعاً، وأنا أُعيد انتزاع الكتاب منه ثانية، وأصرخ في وجهه:

– "إنت اتجننت يا واد؟"

– "يا أستاذ الله يخليك، أنا لو ماغشتش في المادة دي هسقط".

- "وأنا مالي، حد قال لك ما تذاكرش كويس؟"

- "ما أنا مذاكر"

- "أمال إيه؟"

- "زيادة توكيد، الله يخليك يا أستاذ، أنا محتاج الكتاب قوي، أنا نقلت منه شوية صغيرين والله بس، الله يخليك يا أستاذ ده الامتحان جاي كله من الكتاب ده"

وأنا أتعجب من هذا الطالب الغريب، وصوتي يرتفع، و"يلعلع"، حتى يأتي رئيس الدور بنفسه، ليشهد هذه المسخرة، والولد النحيل المهزول، العصبي، المتحمس، متشبث بالكتاب بطريقة مَرَضيّة لا شك!

وبعد مجهود ومعاناة، استطعنا أنا وزميلي المراقب، ورئيس الدور، انتزاع الكتاب من الطالب وإجباره على الجلوس مكانه، وهو ينظر نحوي بعينين تتقدان بالشرر، ويبدو أنه ينوي لي نية أسود من كل أيام الامتحانات مجتمعة!!

وبعد أن هدأتُ قليلاً، رحت أقرأ عنوان الكتاب الذي كان ينقل منه "الجبر للصف الثاني الإعدادي"، فلاحظتُ شيئاً غريباً في هذا العنوان، فملت على طالب متفوق وسألته لأتأكد:

- "إنتم بتمتحنوا إيه دلوقتي؟"

فأجابني بلا اكتراث، ودون أن يلتفت ناحيتي:

- "علوم يا أستاذ، ليه فيه حاجه؟!!".

الأعمال بالنيات!

وهذا مبدأ عظيم، لابد لك من أن تعتنقه تماماً، وأنت تصحح امتحانات الأولاد، فمن يكتب أن "الفاعل مجرور بالفتحة"، كانت نيته الصالحة، أن يكون الفاعل مرفوعاً بالضمة حتماً، ولكنها الأقدار السيئة، وظروف الطقس، لابد هي التي أدت إلى جر الفاعل وشحططته!!

ومن يكتب "مبلول به"، لابد كان يقصد "مفعول به"، فالجو شتاء، كما لابد أنك تعرف، والبلل يتسرب لكل شيء عندما تمطر، كما تُحتّم القوانين الطبيعية الصارمة، فلا عجب إذن إذا أصاب المفعول به -هو الآخر- بعض البلل!!

وإذا كنت تسأل عن مفرد كلمة "بُلغاء"، ويأتي طالب ويقسم لك أنه "بُلْغَة"، فلا تتصوره جاهلاً أو معدوم الذكاء، وإنما هو حكيم، يعلم أن العقل والبلاغة والحكمة لا تكون إلا في الجسم السليم، والجسم السليم يبدأ من راحة القدمين!

أما "قمبيز"، فلو أنك مُطّلع قليلاً على فن المسرح العالمي وقارئ جيد للتاريخ، فسوف تفهم فوراً أن المقصود هو، "تمييز"، حيث إن "قمبيز" في التاريخ، كان قائداً صاحب نفوذ

قوي، أي أنه كان "مميزاً" عن غيره، في العصر الذي عاش فيه، ومن هنا فيجوز القول "قمبيز" أو "تمييز" فكلاهما وجهان لعملة واحدة!!

ولو أنك لم تعرفها، فهذا ليس عيب الطالب مطلقا، وإنما هو تقصير منك يا أستاذ، وقلة ضمير في تأدية ما عليك من واجبات!!

ومن فوائد هذا المنهج كذلك، حمايتك من الإصابة بجلطة في المخ، أو شلل رعاش لا يُرجى منه شفاء!

فعندما تقرأ جملة مثل "مضاف عليه"، وأنت تتذكر جيداً أنك لست في مطعم على أية حال، وموضوع المقادير والوصفات وأضيفي يا سيدتي أربع ملاعق من الملح، لم يخطر ببالك من قبل صلته الوثيقة باللغة العربية، فالأفضل من الجلطة بالتأكيد، الاعتقاد أن المقصود هنا "مضاف إليه"!، ولكن كاتب هذا الحل، لابد بنت شقية، أخذت درساً جديداً من أمها في فن الطبخ، ولا تريد أن تنساه بهذه السرعة، فقررت مراجعته فوراً، وهي لابد تعلم سعة صدر أستاذها و"بجبحته"!!

ثم يا سيدي، أين روح الدعابة لديك وقوة الخيال؟، فـ"رأس البر" حتماً عندما تقال على حرف "من"، فالمقصود لا شك "حرف جر" ولكن الجر متعب، ويبذل فيه الإنسان

كثيراً من الجهد والمعاناة، أما "التصييف" و"البلبطة" في المـاء، فأمر آخر تماماً، أمتع كثيراً من أمور الجر و(الـشيل) والحـط وخلافه!

ثم يا أخي ما المانع لو أنك تريد أن تقول مـثلاً "ظـرف زمان" فخرجت منك بلا قصد "ظرف مكان"؟

هل قامت القيامة؟

هل انفجرت الأرض والشمس وباقي أفراد العائلة الشمسية المحترمة؟

ثم هل الزمان منفصل عن المكان بذمتك؟، لا تعقد الأمـور هكذا، "وبحبحها حبتين"!

وخذ الأمور من زاوية أخرى يا سيدي، فعندما يأتي السؤال للطالب في جزء القصة، عمن كـافح وعـانى حـتى طـرد "الهكسوس" من مصر، ويجيب الطالب بيقين أنه "سعد زغلول باشا"، فلا تنتفض غضباً، وتتسرع في حكمك عليه، وتتهمـه بالغباء، والجهل التاريخي.

إذ هل عايشت هذه الفترة من التاريخ بذمتك؟ وما يدريك، لعل الطالب، بسعة علمه وعبقريته، قد توصل إلى ما جهلتـه جميع المصادر التاريخية العربية والأجنبية حتى وقتنا هذا، وهـو يجيب الآن، في هذه اللحظة التاريخية النادرة، عن بصيرة ووعي، ليلعب دوره الحضاري في تنوير العالم!!

وأما عن الابتكارية المتأصلة في نفوس الطلاب، واختـــراقهم للمحظور، وطرح الأسئلة الشائكة التي دَوّختْ جموع العلماء، بمنتهى الصراحة والوضوح، فحدّث ولا حرج، فعندما تكـــون قطعة "الإملاء" عن الكفاح الجدي، والعمل الـــدءوب الـــذي يوصل للنجاح، فلا ضرر من ذلك طبعاً، وأن تحكي القطعة عن "إسكافي" فقير، أوصله إخلاصه في العمل ليصبح تاجراً كـــبيراً للأحذية، فهذا أيضاً رائع ومُسلّ، ولكن أن يـــصف كاتـــب القطعة سرعة "الإسكافي" في إصلاح الأحذية وبراعتـــه بأنـــه يصلح أكثر من خمسين "نعلا" في اليوم، فتتحول كلمة "نعـــلاً" بقدرة قادر، في أوراق التلاميذ وبالإجماع، إلى "بغلاً"، فهذا مما يطرح العديد من الأسئلة الوجودية الصعبة، ويفجر العديد من الأطروحات الشائكة:

- ما العلاقة الحقيقية بين النعل والبغل والتلميذ؟

- النعل يضعه التلميذ في قدميه، والبغل يركب فوق ظهره، هذه المفارقة ما دلالتها الفلسفية؟

- النعل ربما يُصنع من جلد البغل، كيف يدعم هذا نظريـــة الديمقراطية في ظل الظرف التاريخي الراهن للأمة العربية؟

والعديد من المواضيع الشائكة والحساسة، الـــتي يطرحهـــا الطلاب بمنتهى الصراحة والشجاعة، بمجرد زيادة نقطة واحدة وتغيير مكان النقطة الأخرى!!!

نصيحة أخيرة حتى لا أثقل عليك، لا تتصور أن كل هـــذا ينبع -لا سمح الله- عن خطأ من الأولاد، أو عن سوء نيـــة أو قلة معلومات مثلاً، ولكنها جميعاً ظواهر لغوية جديدة لم تأخذ بعد حظها من الدرس والانتشار!

وبالطبع أنت لست في حاجة بعد كل هذا، إلى أن أذكّرك بالمقولة الشهيرة "الطالب دائماً على حق"، وإذا وُجدَ الخطـــأ، فليس هو المسئول عنه حتماً، ومن ثم فكل الإجابات السابقة، تُعتبر حلولاً نموذجية متميزة، تستحق النجاح والشكر والتقدير، ويصنف أصحابها من طبقة كبار مفكري الأمة!!

العصا لمن عصى!

وذهبنا للمراقبة على المرحلة الإعدادية خـارج مدرسـتنا، وكان يوماً من أيام الامتحانات ثقيلة الظل، من نوعية الأيـام التي تختبئ فيها الشمس، بإصرار وعنـاد، وتـرفض أن ترينـا وجهها، ويتغطى وجه السماء بأكمله بالسحب المتكاثفة، كأنما لتتدفأ من لفحة الهواء التي بدأت تشتد على مهل!

وأنا أشق طريقي بصعوبة إلى اللجنة، وسط قبيلة كاملة من أولياء الأمور، الذين تركوا أعمـالهم عـن طيـب خـاطر، واستيقظوا من الفجر، ليصحبوا أبناءهم في يـوم الامتحـان، متحملين البرد والعناء وقلة القيمة من أجلهم، وكأنهم يعتقدون أن أبناءهم سوف يقدّرون لهم هذا عندما يكبرون!!!

وما أن ينتبه أحدهم إلى وجودي، وإلى أنني مراقب، حـتى يسري اسمي -لا أدري كيف عرفوها!- بين الجمـع المحتـشد، كالنار في الهشيم، وكالسكين في الزبد، وحتى يتكاثر الناس من حولي، وتبدأ التوصيات تُغرقني من كل مكان:

- "خلّي بالك م الولاد يا أستاذ"

- "دول زي ولادك برضه"

- "النهارده مادة صعبة، خليك معاهم".

- "ده إنت الخير والبركة "

وأجد بين يدي، عشرات الأوراق الملغمة بأسماء الطـلاب وأرقام جلوسهم وبجانهم، فلا أملك إلا أن أبتسم في وجوههم، ابتسامة مدروسة، وأنا أهز رأسي أن حاضر.

وأتأمل أقوالهم لحظات، محاولاً أن أجد مبرراً مقنعاً لمساعدة الطلاب، فالأولاد أشقياء لدرجة مذهلة، ومهملون وكـسلاء وعديمو الذكاء و.. و.. و...، فكيف (أحلّـي) بـالى منـهم بالضبط؟؟

وأما موضوع "زي ولادي"، فأنـا لا أولاد لي بعـد، ولا أعتقد أن هذا مشروع حضاري ناجح، أو أن له أي نفع مـن أي نوع على المدى البعيد أو القريب!، فالزمن تغير، والحيـاة كشّرت عن أنيابها، وأكبر خدمة تؤديها لأبنائك بحق هـي ألا تنجبهم من الأصل!!

وحكاية المادة صعبة، فالمواد كلها صعبة ومعقدة، بالنـسبة لجميع الطلاب حتى المتفوقين منهم!

أما موضوع الخير والبركة السالف الذكر، فالكل يعرف أن (الخضرا في إيدي ناشفة)، كما يقول المثل الشعبي الحكيم الذي أظنه قد اختُرِعَ من أجلي خصيصاً!

واللجنة مثل أي لجنة، والطلبة هم الطلبة في كـل مكـان، وكلما نظرت إلى أحدهم، على أمل أن تختلف ملامحه قليلاً عن غيره، أو يبدو في عينيه لمحة ذكاء، أجدني أتذكر قول العبقـري "رياض القصبجي" عن "إسماعيل ياسين": "هو بغباوته" !

فليمض اليوم إذن مثل أي يوم آخر!

وأحد الطلبة الذين تبدو في عيونهم شيطنة متأصلة، يستأذن -فجأة- للذهاب للحمام، وعلى وجهه آثار الهـم والكـرب الشديدين، فأسمح له طبعاً بالذهاب، فمن يستطيع أن يقف في وجه الطبيعة؟!

وما هي إلا لحظات، حتى يعود الولـد، وقـد انفرجـت أساريره تماماً، وارتاحت ملامحه، فأبتسمُ في سـري، وبعـدها بثانية واحدة، أجد يداً ثانية لطالب آخر، ترتفع طالبـة الإذن بالذهاب للحمام أيضاً، وعلى ملامحه هو الآخر، نفس علامات الضيق والاكتئاب، فأسمح له، ولا يلبث أن يعود هو الآخر بعد قليل، وقد تهلل وجهه بشده، فترتفع يد ثالثة، ورابعة،وخامسة، فبدأت أشك، وقبيلة فئران كاملة، تحط رحالها في صدري!

فأشرت لزميلي أن انتبه، ثم انسحبتُ من اللجنـة بهـدوء، ونزلت أنا الآخر إلى الحمام، فهالني ما رأيـت!!، فالامتحـان طبعاً كان قد أخذت منه أكثر من صورة، ومدرس المادة أُحضر

من تحت الأرض، والأسئلة قد حُلت، الحل النموذجي اللائق بطلبة "السوربون"، والطالب لم يكن يذهب للحمام إذن، من أجل تلبية نداء الطبيعة أبداً، وإنما قد تحول الحمام إلى ترسانة يتزود منها الطالب بالأسلحة اللازمة لمواجهة معركة الامتحان!!

وابتلعتُ ريقي في صعوبة، فهذه كارثة، وعليّ وحدي، يقع عبء مواجهة الموقف، فتسللت من مكاني، دون أن يلمحني أحد، ووصلت بمعجزة لرئيس اللجنة، وقلت له بصوت مبحوح وأنا ألهث:

- "الحق يا أستاذنا، الامتحان اتصور، واتحل، والطلبة بتغش!"

فانفعل بشده، واحمرت عيناه، وانقلبت ملامحه، وهاج وماج، وانتظرت أن يتصل بالبوليس، ويقبض على المتآمرين، ويسجل اسمه واسمي -بحروف من ذهب- في سجل الخالدين، ومن يدري؟ ربما "تضرب" مع الواحد، والصحافة "تشم" خبر، "وهاتك" يا تحقيقات، وصور، وشهرة، وجايز كمان التليفزيون يوصل له الموضوع، وتبقي "هيصة"، ويتعمل مسلسل من بطولة "عادل إمام" شخصياً!

وانتبهت من أحلامي الوردية على صوت رئيسي الهمام، وهو يُوجّه كلامه لي بانفعال:

- "وإنت مالك إنت؟، ثم إيه اللي طلعك من لجنتك، ممنوع يا أستاذ، ممنوع"

- "هو إيه اللي ممنوع، الغش؟"

- "لأ، خروجك من لجنتك، اتفضل، اتفضل يا أستاذ على لجنتك، بدل ما أحولك للتحقيق، اتفضل"

وأحسست بالصدمة، وأنا أرى ثورته العارمة، وأسمع كلامه، وأحاول أن أهضمه، فيقف في حلقي، ويؤلمني، ولكني لا أجد بُداً في النهاية من الانسحاب من أمامه، والعودة إلى اللجنة، فقط لأجد الطلاب وقد أخرج كل منهم، ورقة محلولة حلاً نموذجياً أمامه، هكذا "عيني عينك"، وبدأ عملية النقل والتصوير، مستريح الضمير، منفرج الأسارير، وزميلي يدخن سيجارته بلا مبالاة، ويتسلى بملاحقة خيوط الدخان بأصابعه، فصحت في الأولاد بغيظ:

- "يخرب بيوتكم، بتعمل إيه يا واد إنت وهو؟"

فلم يرد عليّ أحد، أو يكلف خاطره حتى بالنظر إليّ، فالكل منهمك، ولا يريد تضييع لحظة واحدة، والموضوع موضوع مستقبل، ولا وقت لهذا الهراء الذي أمارسه، وزميلي ينهض من مقعده في كسل، ويأخذ بيدي إلى خارج اللجنة، حتى لا نعكر صفو عملية الغش، وهو يهمس:

- "بلاش هور، إنت لسه جديد في العملية؟"

- "مش فاهم قصدك"

- "لما طالب في الفصل بيغلط، ويقل أدبه، بتعمل فيه إيه؟"

- "بضربه طبعاً"

- "الله ينور عليك، أديك فهمت".

وتركني وعاد لكرسيه، وكأنه قد أعطاني قطوف الحكمة الخالدة، وأنا لا أفهم، فصحت فيه بغيظ:

- "إيه يا عم إنت.. أنا مش فاهم حاجة"

فابتسم ابتسامة العالم ببواطن الأمور وقال:

- "أهو إحنا برضه كده.. لو ماغششناش.. نبقى وَقّعنا نفسنا في الغلط.. وننضرب.. ولا ليك دية ولا حد هيرفع صوته يجيب لك حقك.. اعقل يا ابن الناس كده وروّق.. واقعد اتسلى في أي حاجة.. على م العيال تخلص.. وافتكر إن العصا لمن عصى.."

وانتفضت من مكاني، وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع وما أرى، ولكن بعد جولة سريعة في بقية اللجان، تأكدت لي الحقيقة المُرة، وفهمت -ربما لأول مرة- لماذا يختنق التعليم في مدارسنا يوماً بعد يوم، ولماذا تزداد الأمية بين المتعلمين أنفسهم!

وجلست أغلي بالغيظ، وأنا أتخيل نفسي أضـــرب علقـــة ساخنة من أولياء الأمور المتحمسين، بمساعدة الطلاب، وربمـــا رئيس اللجنة، وبعض الزملاء كذلك، وتخيلت البهدلـــة وقلـــة القيمة، فآثرت السلامة، وعدم إثارة ضجة، وقلت في سري:

- "يعني كلهم هيطلعوا طيارين؟!"

ورحت أتمنى في قرارة نفسي أن تمطر الدنيا بـــشدة، حـــتى يغرق جميع الطلبة ونرتاح من شرهم!

البحث عن خمس إبر في

كومة من الطلاب!!

وتمضي الأيام، بين عذابات وأفراح، انكسارات ولمحات من الهناء، بين ضحك ودموع وصعود وهبوط.

ويكلفني الناظر ذات يوم وهو في منتهى الحماس، باختيار خمسة من الطلاب "المتميزين"، وإعدادهم لمسابقة "أوائل الطلاب" وأنا أسأله في براءة:

- "ونجيب أوائل طلبة منين يا حضرة الناظر؟"

فيرشقني بنظرة نارية، ويكمل كلامه السابق، وكأني لم أقل شيئاً، وهو يضغط على كل حرف من كلماته:

- "وعايزين المستوى يبقى مشرف، هه، مفهوم؟"

فأهز رأسي بحماس مصطنع وأنا أستطرد:

- "إلا مفهوم، طبعاً طبعًا يا فندم"

وفي حركة مسرحية مبالغ فيها، أرفع له يدي بتحية عسكرية مضحكة، وأنا أقول:

- "عُلم يا فندم، وجاري اتخاذ اللازم"

فلا يبخل عليَّ بواحدة من نظراته النارية المعتادة، ثم لا يلبث أن يوليني ظهره وهو يتمتم:

- "أما نشوف"

وأنا قد وقعتُ في "حيص بيص"، فمن أين آتي له بطلاب متميزين، وهو ناظر المدرسة قبل أن آخذ الابتدائية، ويعلم البير وغطاه؟

فهل أستورد له طلاباً من الخارج حسب مواصفات الجودة العالمية؟

أم أُعلن في الجرائد عن حاجتنا لطلاب محترفين من أجل المسابقة؟

أم هل يريد مني يا ترى أن أتنكر في هيئة خمسة طلاب وأذهب بدلاً منهم للّقاء المحتوم؟!

وبدأتْ رحلة البحث عن خمس إبر في كومة من الطلاب!

والأساتذة، كلما سألتهم أن يرشحوا لي أحد الطلاب للمسابقة، ابتسموا في سخرية، وانهالت علي تعليقاتهم اللاذعة من نوعية:

- "فوت علينا بكرة!"

- "للدبح.. عندي.. للمسابقة.. آخر واحد خِلص من عشر سنين!"

- "اسأل عند الجزار اللي جنب المدرسة، يمكن تلاقي عنده، لكن هنا مستحيل!"

وأنا ألفّ كالنحلة حول نفسي، ولا أجد مخرجًا من هــذه الورطة الصعبة، والناظر يتتبعني هو الآخر، بوابل من النظــرات التي أخشى تفسير معناها! وهو يترقب النصر العظيم الذي من المفروض أن أحققه!

ولما يئست، قررت أن ألجأ إلى الطلاب أنفسهم، وأحـــاول تحميسهم، علـّـي أظفر بنتيجة، ودخلت إلى الفصل في اليـــوم التالي، وبعد إلقاء تحية الصباح عليهم، وبعد أن تنحنحت أكثر من مرة لترتيب أفكاري، بدأتُ توجيه الحديث إليهم بمنتـــهى الود:

- "بقى يا شباب أنا عندي ليكم خبر حلو"

- "خير يا أستاذ، امتحانات آخر السنة اتلغت؟"

- "لا يا حبيبي طبعاً، بس فيه مسابقة كبيرة قـــوي وليهـــا جوايز ماحصلتش، هنلعب فيها مع أكتر من مدرسة، مين يحب يشترك؟"

وقامت فجأة ثورة كثورة "عـــرابي"، إذ الأيـــدي كلـــها ارتفعت، والأصوات علت، وساد الهرج والمرج، والكل يملـــي

اسمه بحماس، وهو يؤكد لي أنه الأفضل، وأنه لـــن يتكـــرر في التاريخ وأنه مكسب لأي فريق، ولولا الحظ والصدف لكـــان الآن نجما من نجوم العالم، وحكاية من حكايات الزمان، وأنـــا أكتم دهشتي، وقد انشرح صدري لهـــذا الإجمـــاع الـــذي لم أتصوره أبداً!

وبسرعة قبل أن تخمد حماستهم، أخرجتُ ورقـــة وقلمـــاً، وبدأت تدوين الأسماء، وقلبي يرقص من الفرح، وكان لديّ في الواقع، أكثر مما أحتاج إليه بكثير، ولكني فضّلت كتابة جميـــع أسماء الراغبين ثم تصفيتهم بعد ذلك.

وبدأتُ الحديث معهم وأنا سعيد، لأخبرهم عن ثقتي فيهم، وسعادتي بهم، وحمـــاسي الشخصي للمباراة، والمجهود الـــذي من المفترض أن يبذلوه، ولكن طالباً "مقروضا"، وقف فجـــأة وسألني مقاطعاً:

- "وهنلبس لون إيه يومها يا أستاذ؟"

فاندهشت للسؤال، وقلت له:

- "عادي يعني، زي أي يوم!"

فقال آخر:

- "طب وهم هيبقى لون فانلاتهم إيه؟"

فنظرت نحوه لحظة، غير مستوعب للأمر وقلت في عجب:

- "فانلات مين؟"

فوقف لي أحد الطلاب، وهو يقول بنفاد صبر، وقد أغاظهم غبائي:

- "فانلات الفريق اللي هنلاعبه "الماتش"، عشان إحنا نجيب فانلات مختلفة"

فصحت وأنا لا أفهم:

- "ماتش إيه يا إخوانا، وفانلات إيه؟"

- "ماتش الكورة يا أستاذ، الله، أُمال حضرتك كتبت أسامينا ليه بقى؟!"

وأضاءت الحقيقة في عقلي فجأة، "ماتش كورة"!!، لهذا اندفع الجميع لتسجيل أسمائهم، بكل هذا الحماس، وخبطت رأسي بيدي في قوة، وأنا أنظر إليهم في غيظ ، أيها الـ...!!

وحاولت توضيح الأمر لهم، بهدوء وروية، وأني أقصد مباراة ثقافية، في المعلومات الدراسية، وأن سيرة الكورة لم تأت على لساني، و لم تخطر لي على بال، ولكنهم نظروا نحوي جميعاً بسخرية، ورفضوا تصديق حرف واحد مما أقول، وحلفت لهم بالدين والأيمان، ويقينهم أسطوري لا يتزحزح، وقد أفْلَت زمام الأمر من يدي تماماً، وقد تصوروا أني أقف أمام مستقبلهم

الكروي، وأحاول تحطيم موهبتهم الفذة، ولم أجـد بـدأ في النهاية بعد أن بُح صوتي، وخارت قواي، من تسليم أمري إلى الله ومسايرتهم فيما يعتقدون واللي يحصل يحصل!.

واضطررت لاختيار خمسة منهم على أية حال، وجاء اليوم الموعود، وتلامذة المدرسة جميعـاً في "الحـوش"، والأسـاتذة والإداريون، والناظر يرمقني بتساؤل، فأبتلع ريقي في صـعوبة، وأشير له أن "كله تمام"، "وإحنا جدعان قوي"!

وما هي إلا لحظات، حتى هلّ طلابنا العظمـاء، في زيهـم الموحد البديع، وكان شيئاً غير معتاد قليلاً، أن يـرى النـاظر والأساتذة أوائل الطلاب، يرتدون "الشورتات" و"الفـانلات" الرياضية وهم في طريقهم لمسابقة ثقافية!

وبدؤوا فوراً - وسط دهشة جميـع الحاضـرين- تمـارين الإحماء واللياقة والجري!، فمستقبل المدرسة بين أيـديهم -أو أرجلهم!- وسمعتها وكرامتها كذلك، وهم ينـوون للفريـق المنافس نية سوداء!!

ووجدتُ الناظر ينظر ناحيتي في تساؤل، فهرعت إلـيهم، وأخذت أهمس لهم في حذر:

- "أحسن شباب، بس اقعدوا شوية علـى الترابيـزة دي، نتعرف بس على الفريق التاني وبعدين اعملوا اللي إنتم عايزينه"

فجلسوا على مضض، وأدهشهم جدًا رؤية فتيات في الفريق الآخر، فهمس أحدهم لزميله:

- "وله..إحنا هنلعب كرة قدم نسائية ولا إيه؟"

وعلى حين غرة، تكهربت الدنيا، إذ ورقة أسئلة قد ظهرت فجأة من العدم، ووزعت على الطلاب، والفريق الآخر بدأ كالصاروخ، يكتب الإجابات ويتناقش، ويرتفع الصوت، وتقوم الدنيا ولا تقعد، وطلبة مدرستنا لم يفهموا بعد الفخ الذي نصبته لهم!

وجعلوا يرددون النظر بيني تارة، وبين ورقة الأسئلة -التي بدت مكتوبة لهم بلغة أجنبية- تارة أخرى، وأخيرًا أخيرًا جدًا بدؤوا يفهمون!

ووجدتُ الغضب يرتسم على وجوههم، وقد مال كل منهم على الآخر، وتحلّقوا يتآمرون على شيء لابد رهيب!

والشيء الرهيب، كان الاعتصام بالصمت، وعدا "شخبطة" بالقلم الرصاص، لمحت أحدهم يرسمها في الورقة على عجل، ويريها لزملائه، فقد تركوا ورقة الإجابة بيضاء كقلوبهم، وبعد فترة قصيرة، تم تسليم الأوراق، ووضعتُ يدي على قلبي، وأغمضت عيني، وأنا أنتظر الفضيحة الكبرى، وكلام الناظر والمدرسين والطلاب وطوب الأرض!

ولكن المفاجأة الكاسحة التي زلزلتني، كانت فوز مدرستنا بالمسابقة!!

وكدت أجن طبعاً، أو أُصاب بـ"عته منغولي" إلى الأبد على الأقل!

وفي حين التف حولي زملائي مهنئين، ومتسائلين عن كيفية تحقيقي لهذه المعجزة، ومعتذرين عما بدر منهم من شك في قدراتي العظيمة، كان عقلي يلف ويدور، وقلبي يدق كالطبول الإفريقية، ثم سرعان ما تخلصت ممن كانوا حولي، واندفعت كالمجنون، نحو المصححين وطلبت منهم أوراق الإجابة لأفهم حل هذا اللغز.

وكانت ورقة إجابة المدرسة الأخرى مليئة حقاً بالكلام، ولكن اتضح لي بعد تدقيق النظر، أنها قصيدة شعر بالعامية، كان الطلاب يتسلون بكتابتها في الورقة، من أجل تمضية وقت الفراغ فحسب، فهم وتلامذة مدرستنا، وكل تلاميذ مصر في الهم سواء! وأخذوا صفراً كبيراً بالطبع.

أما ما جعل مدرستنا تفوز، فكان وجود كلمة "مشنقة" في ورقة إجاباتنا، حيث إن الطلاب الأعزاء الودودين، اتفقوا فيما بينهم أني أستحق "الشنق"، لهذا المقلب الذي عملته فيهم، وكانوا يعبّرون عن هذا الرأي المتواضع، بكتابة هذه الكلمة

الرقيقة في الورقة، وبالصدفة كان السؤال الأول في اللغة العربية هو: "هات مفرد مشانق!!"، فاستحـــق الطلبة العباقرة نصف درجة، هى التي جعلتهم يحققون هذا الفوز الـــساحق المـــاحق الأسطوري!!!!

واقترب مني الناظر، وهو "يتنطط" من الفرح ويقول:

- "برافو يا أستاذ، أنا كنت واثق إنك هتعملها"

وأنا أبتسم في تواضع، وأسرع بإعطاء الورقة للمـــصحح، وأودعه بنفسي لباب المدرسة، دون أن أسمح لمخلـــوق واحـــد بالحديث معه، حتى لا ينكشف المستور، وتـــصبح فـــضيحتنا بجلاجل!!!

أشياء تحدث!

وزارني الموجه ذات مرة، وكنت سعيداً، إذ أنها فرصة ذهبية ربما لا يسمح بها الزمان مرة ثانية، لكي يرى عن قرب مستوى الطلاب البديع، ويفهم لماذا أشكو دائماً منهم، ويدرك سر فتات الدرجات الهزيل، الذي يحصلون عليه بشق الأنفس، رغم مجهودي الجبار معهم، وكانت الحصة التي اختار زيارتي فيها طبعاً حصة "نحو"!

وقلت له ونحن نصعد السلم:

- "أكتر حاجة بتضايقني يا أستاذ في حصة النحو بالذات.. إن الطلبة بتنام فيها مش عارف ليه!!"

- "كويس إنهم ما بيناموش غير في حصة النحو بس.. احمد ربنا.. أنا جاي من مدرسة.. الطلبة ما بتصحاش فيها غير في الفسحة!!"

ودخل الرجل معي لميدان المعركة، والتلامذة ما كادوا يبصرونني مع شخص غريب، حتى دب فيهم الحماس والجدعنة، إذ كلهم قاموا وحيوا القادم بأدب مبالغ فيه، لم أكن أتصورهم قادرين عليه! وأحدهم انطلق كالصاروخ، وبين يدي

وجدت كرسياً محترماً، والشاي كان قد أُحضر، والسبورة نُظّفت، والطباشير -وهو عملة نادرة في أي فصل- بقدرة قادر ظهر أمام عيني من العدم، والكتب قد فُتحت على درس اليوم، وحتى مَن لم يُحضر كتابه، أتوا له بكتاب من بقية فصول المدرسة، وتحول الفصل إلى جنة!!

وأنا مذهول، أترقب في أي لحظة حركة "نص كم"، أو مأساة خطيرة!

واستراح الموجه على الكرسي في آخر الفصل، وأمسك بكوب الشاي الساخن، يتلذذ برشف قطرات قليلة منه، في هذا البرد القارص.

وبدأت الحصة، وأنا متوجس قليلاً، والدرس درس "نحو"، والنحو هو أعقد مادة خلقها الله سبحانه وتعالى، من وجهة نظر التلاميذ، وفائدتها الوحيدة هي تعذيبهم والتنكيل بهم، ويحلفون بالدين والأيمان أنه من المستحيل أن يكون لها فوائد أخرى!

والموضوع "الأدوات التي تجزم الفعل المعتل"، وأنت لكي تشرح للتلاميذ مثل هذا الدرس المرعب، فلابد أن تكون لك قدرة غير عادية، على الابتكار وضرب الأمثلة والاقتراب من عقليات التلاميذ المختلفة:

- "يا ولاد لما الواحـــد -الله لا يقدر- يتعب... بـــيروح لمين؟"

- "للحلواني يا أستاذ"

- "حلواني إيه يا بقرة، لا مؤاخذة يا أستاذ هـــو قـــصده للدكتور"

- "برافو، والدكتور بيخلّص الواحد من إيه؟"

- "من فلوسه يا أستاذ!"

- "يا ابني ماعدتش تتكلم إنت وعنـــدنا ضـــيوف.. هـــو قصده.. من الأمراض يا أستاذ"

- "تمام.. يعني الدكتور يشوف الأمـــراض اللـــي عنـــدنا ويخلصنا منها مش كده؟"

والأولاد يبدون مستمتعين جداً بهذا الأسلوب، إذ الحديث عن الأمراض أفضل عندهم ألف مرة من الحديث عن النحو!

وعدت أسألهم:

- "طب قولوا لي أسماء تلات أمراض معروفين يا ولاد"

- "النحو والهندسة والعلوم يا أستاذ"

- "يا ابني أمراض، أمراض يا بني آدم، زي اللوز والحاجات دي"

- "الصرع والحمى.. والزائدة الدودية.. يا أستاذ"

- "يا ساتر يا رب على اختياراتكم المهببة.. ماشي، مايضرش.. إذن التلات أمراض دي.. لو روحت لأي دكتور هيخلصك منهم.. تمام؟"

وكنت قد بدأت أصل للهدف الذي أسعى إليه فقلت في حماس:

- "أهو إحنا عندنا برضه يا ولاد تلات أمراض في النحو بس بنسميهم حروف العلة.. وهم "الألف والواو والياء".. هنحطهم بدل الصرع والحمى والزائدة الدودية، تمام؟"

- "تمام يا أستاذ"

- "ودلوقتي بقى.. لو جه فعل متشملل وشايف نفسه حبتين.. وكان أحد حروفه.. حرف من حروف العلة التلاتة.. اللي اتكلمنا عنها.. وراح للدكتور هيعمل إيه الدكتور معاه؟"

- "هيخلصه من الحرف ده يا أستاذ"

- "برافو عليكم.. إيه الحلاوة دي؟.. فاضل بس حتة صغيرة خالص.. وهي مين الدكاترة المسئولين عن تخليص الفعل من حرف العلة.. والدكاترة دي يا إخوانا بنسميهم حروف جزم الفعل المعتل زي: "لا الناهية ولما و لم".. هه.. معايا؟"

وكنت كلما بدأت الدخول في "الغميق"، وما أكاد أتــرك عالم الأمراض، لأقترب على مهل من عالم النحو، حتى تبــدأ الأعين تتسع في بلاهة، والهمس يزداد، والهرش، والقلقلة علــى التختة، والزمام يُفلت مني، وحتى يبدأ النعاس يدب إلى العيون المرهقة دائماً من كثرة اللعب والشيطنة!

وتأملت في الوجوه بقلق، إذ اليوم الأمــر مختلــف تمامــاً، فالموجه هنا، ولابد أن تتم الأمور على ما يرام، مرة واحدة على الأقل، ولكن كانت العيون "مفنجلــة" والحمــد لله، والعــالم مصحصحة.

وتنفست الصعداء، وبدأت الاســتعداد لجولــة جديــدة، واستدرت للسبورة بحماس، مــستغلاً صــحوة الأولاد غــير الطبيعية هذا اليوم، وقد طمعت أن يفهموا هذا الدرس، حــتى يأخذ عني الموجه فكرة حسنة، ولكن قطع الهمــاكي فجــأة صوت غطيــط عال يأتي من خلفي!

فاستدرت في غضب، وأنا أرغي وأزبد، وأنوي تحطيم هذا الطالب المتهور، الذي أسلم نفسه للنعاس تماماً، ونحن نمر بهــذا الظرف الحرج، وألقيت بنظري إلى جميع الطلبة فإذا بهم جميعــاً في أتم يقظة وانتباه، ولكنهم يكتمــون الــضحك في صــعوبة

ويشيرون لآخر الفصل، فمددتُ بصري إلى حيث يشيرون... وكانت المفاجأة!

فقد كان الموجه العزيز بذات نفسه، هو الذي ترك الكرسي الذي كان يجلس عليه، وأراح جسده على تختة الطالب الأخير، وأسلم نفسه لنوم عميق، وأنا أنظر إليه في بلاهة منقطعة النظير، وأحاول استجماع نفسي، وضبط أعصابي، ولا أدري ماذا أقول!!

عن الرحلات سألوني (١)

١ – جمل متنكر في هيئة أتوبيس

وقررت المدرسة يوماً القيام برحلة ترفيهية، فالأولاد طبعاً في منتهى التعب والإرهاق، من كثرة المذاكرة ومجهود الاستيعاب الخرافي الذي يبذلونه طوال السنة!، وفي حاجة لإنعاش عقولهم وإراحة أبدانهم، من أجل المزيد من الإنجاز والتفوق!

وإلى القاهرة قرروا الاتجاه، فالأولاد أيضاً –وبإجماع غير عادي– أكدوا أنهم سوف يموتون كمداً –يا رب– لو لم يروا حديقة الحيوانات، التي يسمعون عنها من زمن، وخاصة جبلاية السادة القرود!

وفي صباح يوم عاصف لطيف، فاتحني الناظر العزيز في الأمر، ومن أنه لن يجد طبعاً خيراً مني، للإشراف على الأولاد الظرفاء، والمحافظة عليهم، والسهر على راحتهم ، كما أخبرني بأن الأمر أولاً وأخيراً يرجع لي، وأن من حقي –ومنتهى الحرية– أن أقبل أو أرفض، ولكن من حقه هو الآخر، أن يعطيني درجة عالية، في تقييمه لي آخر العام، أو درجة "نص كم"، فالإنسان خلقه الله حراً كما لابد أنك تعلم!

ووافقتُ فوراً، بمنتهى الحرية والديمقراطية، وأنا أكاد "أفرقع" من السعادة والهناء والشرف الرفيع الذي اختصني بـه النـاظر العزيز!

والأتوبيس الذي أحضروه، كما لابد أنك تعلم أيضاً، ليس فائق الجـودة بالضرورة، ولا خاضـعاً لمـواصفات الجـودة "الأتوبيسية" العالمية، فالفلوس "ع القـد" وفي الأول والآخـر "دول شوية عيال، أهم حاجـة عنـدهم الزيطـة والتنطـيط وخلاص"، ورغم معرفتي التامة بهذه الحقائق الكونية الراسخة، إلا أنني عندما رأيت الأتوبيس لأول وهلة، فُجعت، فلم أكـن أتخيل للحظة واحدة، أن هذا الشيء من الممكـن أن يكـون أتوبيس رحلتنا، أو أي رحلة أخرى على الإطلاق!

فمن مظاهر الأتوبيسات، التي أخبرنا بها من نثق بروايته من أهل الخبرة، لم يكن أتوبيـسنا العزيـز يملـك إلا العجـلات فحسب!، فالزجاج عملة نادرة بالنسبة للـشبابيك، كمـا أن "التنجيد" للكراسي يعتبر رفاهية، مثلها مثل وجود "سوسـت" أسفل العجل لامتصاص الصدمات، وطبعاً موضوع الإضـاءة الداخلية حلم من أحلام اليقظة، أما وجود قفل للباب يـسمح بإغلاقه فهذا تبذير لا مبرر له على الإطلاق!

ولم يكن أمامي -على أية حـال- إلا أن أبتلـع صـدمتي وعجبي وأغلق فمي، وأسلم أمري لله، ووسط "الزيطة والهيصة"

والصراخ، أحاول تحقيق معجزة ترتيب الأولاد داخــل شــبه الأتوبيس المحترم، ثم حشر نفسي مع بقية السادة المشرفين في أي مكان خال كيفما تيسر.

وعندما أدار السائق العجوز المفتاح، وبعد محاولات عديدة، كعدد سكان مصر، ارتجف الوحش الهائل، المــريض لدرجــة الموت، وارتفع صوت قرقعة هائلة كصوت ألف جرس يتكسر وفاحت رائحة دخان عاتية، كأن قرية كاملة من آكلي لحــوم البشر تحترق!، ثم تزحزح الجسد العملاق مجــرد ســنتيمترات بسيطة فقط، وكانت فرحة فرحة فرحة، وارتجت البلدة كلــها والقرى المجاورة أيضاً، بصياح الأولاد المندهش الفرحان لهــذه المعجزة غير المتوقعة أبداً!

ويا سلام عندمــا اكتشفنا -بمحــض الصدفة- وجــود راديو قديم متهالك أيضاً يطل علينا -في بؤس وشــقاء- مــن ركن الأتوبيس، وصدق أو لا تصدق فقد كان يعمل كذلك! صحيح أنه لا يعرض إلا إذاعة القرآن الكريم فقط، ولكن احمد ربنا، فهذا لاشك أحسن ألف مرة من عدم وجود أي شــيء على الإطلاق!

وبدأت الرحلة المذهلة!!!

والأتوبيس المصيبة الذي نركبه -والذي لا يختلف كثيراً عن أي جمل يحترم نفسه- يتهادى، ويتبختر على راحته، وراحــة

راحته، ويبدو فناناً سريالياً غير عادي القدرات، لا يحلو لـــه إلا النزول في كل المطبات التي خلقها الله، حتى سرت موجة مـــن الرأي العام بيننا تقول إنه لو لم يجد السائق مطبات في الطريـــق لما دخل فيه من الأساس، وربما يرجع هذا إلى وجود استلطاف قديم بين كل من السائق والأتوبيس والمطبات! وفي كل ثانيـــة تقريباً، تخبط أذنك أرقى الألفـــاظ والـــشتائم، مـــن مختلـــف جنسيات السائقين، الذين يوقعهم ســـوء حظهـــم في قرعتنـــا ويسيرون خلفنا، والسائق والحق يقال "عمل اللي عليـــه"، إذ بالبنط العريض، وعلى ظهر الأتوبيس قد كتب: "يا مّدّي.. يا تعدّي"، في نية واضحة للمشي على مهل، حتى لـــو كانـــت الرحلة تستغرق ١٠ سنوات ضوئية!

ويتهادى بنا الجمل الحديدي، وسط شلالات الهواء الطاحنة التي تفرم أجسادنا بالبرد، والتي تتدفق بمنتهى الكرم والأريحيـــة من بقايا الزجاج المتكسر، الذي نرى آثاره علـــى الـــشبابيك، والمناظر الطبيعية التي ما تكاد تدقق النظر في أحـــدها، حـــتى يمسحها من أمام عينيك مشهد آخر، وهكذا دواليك.

والغريب أن كل هذا، لم يمنـــع الأولاد العفاريـــت مـــن الاستمتاع بالرحلة إلى أقصى حد، فبعد ثوان كانت حناجرهم تتشابك، وأيديهم تتماسك، وعلى إيقـــاع واحـــد، تتمايـــل

الأجساد الصغيرة الفرحة بالحياة، والسعيدة رغم كل شيء بما يحدث!

وتنوعت الأغاني الشعبية الرائعة، التي جعلوا يرددونها بحماس منقطع النظير، فمنها ما يتكلم عن ضرورة التكافل الاجتماعي بين مختلف طوائف الشعب، والإحساس بالغير ومساعدة من يحتاج للعون مثل:

"أنا عازماك الليلة عندنا..

ده إنت غريب ومانتش من هنا..

وإذا كنت خايف من بابا..

بابا مش هنا"

ومنها الأغاني ذات المضمون الحماسي المتأجج، والتبشير بالانتصار، وقهر الصعوبات مهما حدث مثل:

"العجل هد المصطبة..

يا منجد علّي المرتبة"

كما رأينا كذلك الأغاني التي تتذكر الماضي الغابر بالخير، وتُكنّ له كل احترام وتقدير، وتتغنى بأمجاده:

"أنا نونو صغير..

بنطلوني قصير..

عايز أشتري شرابات"

وكنت أستمع إليهم تارة، وتارة أتخبأ أكثـــر في ملابـــسي الثقيلة، حتى لا أتجمد من البرد، وأتحول إلى "حفرية"، وأهمـــس في سري:

- " الله.. يخـــ.. يكرمك يا اللي كنت السبب"

وأعلم أنها مجرد بداية فحسب، وأن ما سوف يحدث لي في باقي الرحلة، لاشك رهيب، رهيب!

٢ – عندما بكى الفراعنة!

ويصل الأتوبيس بمعجـــزة، إلى أولى المحطـــات في رحلتنـــا الميمونة، منطقة الأهرامات، وكنت أفـــرك يـــدي في حمـــاس وعصبية، وألتقط نفساً عميقاً حاراً، وأجهّز نفـــسي لمحاضـــرة طويلة، عن الحضارة الفرعونية العظيمـــة وبنـــاء الأهرامـــات والتحنيط وأبي الهول، ثم البدء في تلقي أسئلة الأولاد العبقريـــة واستفساراتهم، وانبهارهم وتعليقاتهم وسعادتهم بما يشاهدون.

ولكن شيئاً من كل هذا لم يحدث!

فأحد الأولاد وقف يدير رأسه، يمنة ويسرة، وهو واقـــف تحت الهرم الأكبر الشامخ المهول، يقلب يديه في حيرة ويسأل:

– "هو احنا جينا هنا عشان إيه؟.. أنا مش شايف حاجـــة تستاهل يعني"

وأنا أمسك نفسي بالعافية، حتى لا ألتـــهم حنجرتـــه، أو بالقليل أكسر له يداً أو رجلاً، وأقول له:

– "جينا نشوف الأهرامات يا حمـــ.. يا حبيبي"

فيجيبني ببلاهة:

– "اللي هي إيه يعني؟"

فأثور في وجهه:

- "الأهرامات.. الأهرامات يا بني آدم.. اللي قدامك دي"

فينظر إليها نظرة سريعة، بلامبالاة عجيبة، ويعود للتساؤل بدهشة أكبر:

- "أيوه يعني نشوف فيها إيه بالظبط؟"

فأتماسك، وأحاول تبصيره بالجريمة التاريخية التي يرتكبها، في حق الفراعنة، وأقول له وأنا أضغط على الحروف:

- "الأهرامات دي مبنية من أكتر من خمس تلاف سنة ولسه صامدة لحد النهارده"

فيعود ليسأل:

- "صدقنا وآمنا، احنا جايين هنا ليه بقى؟"

وأحد الطلبة يعقّب على كلام زميله:

- "حضرتك هتبني بيت.. وجاي تتفق مع المقاول اللي بنى الهرم ده؟"

فيكاد يغمى عليّ، أو أصاب بأزمة قلبية على الأقل، ولكني أتمالك أعصابي بقدرة قادر، وأغتصب ابتسامة مشنوقة، وأنا أطبطب رأسه، تحية لعبقريته، وأقول له وأنا أضغط على أسناني حتى كادت تتحطم:

- "تمام، بالظبط يا حبيبي"

ثم أميل لأهمس في أذنه:

- "بس ده ســـر بينـــّا.. إياك تقوله لحد.. هه.. فاهم؟"

فيهز الولد رأسه في كبرياء ويقول:

- "على رقبتي يا أستاذ.. هوا أنا عيل صغير؟!!"

ويسرع بالانصراف، وهو يكاد يطير من الزهو والفرحـــة، لأن أستاذه يأتمنه على مثل هذه الأسرار الخطيرة!

ومجموعة ثانية من الأولاد، "جابوا من الآخـــر"، إذ علـــى الأرض فرشوا ورق الجرائد، وبين لحظة وأخـــرى، ظهـــرت السندوتشات والمشروبات والحلوى والشيبسي وهاتك يا أكل وشرب وضحك وهزار!

ومجموعة أخرى لم تجد في منطقة الأهرامات أكثر من ملعب للكرة،إذ كرة قدم فجأة كانت قد ظهرت من حيث لا أدري، والفرقة تم تقسيمها، والأحجار وُضعت لتحديـــد المـــرميين، واللعب حمي، والأصوات علت والشجار كذلك!

وأنا أنظر نحوهم في غيظ، أضرب كفاً بكف، وأكاد أموت حسرة على ما أرى، وأتصور الفراعنة العظام يشاهدوننا مـــن وراء الحجب، في هذه اللحظة بالذات، ويبكون أشد البكـــاء على هذه الحال المزرية!!

ولكني فجأة ألمح طالباً، يرمق الهرم الأكبر في تركيز واهتمام غير عادي، ويعدل من وضع نظارته على عينيه، أكثر من مـــرة حتى تتضح الرؤية، فأسعد، وأطرب، وأسرع إليه، وأربت كتفه في فرح وأنا أقول له:

- "هيه.. عجباك يا حبيبي؟"

- "طبعاً"

- "شايف قد إيه كبيرة وضخمة؟"

- "طبعاً"

- "وعارف إنها مبنية من خمس تلاف سنة ولسه زي مـــا هي؟"

- "طبعاً"

وأجد أحد المشرفين ينادي عليَّ من بعيـــد، لمـــساعدته في تجميع الأولاد، والاستعداد للذهاب لمكان آخر، فأترك الطالب الممتاز على مضض، وأذهب للمشرف، وعلى فمي ابتـــسامة سعادة، إذ واحد على الأقل من وسط هـــؤلاء.. الحـــيـــــــــ.. الحلوين، قد أفلح!

وفي الأتوبيس،وسط الصخب المعتاد، والأصوات المختلطـــة العالية، رأيت الولد صاحب السر، يغمز لي من بعيد وهو مـــا

يزال يبتسم في سعادة وفخر، كما رأيت الطالب الممتاز مـــرة أخرى، فـــهممت بالانتقال إلى مكانه، لاستكمال الحـــديث السابق، بيد أنه كان يقترب من أحد المشرفين، ويسأله بمنتهى البراءة:

- "يا أستاذ.. هو إحنا هنروح الأهرامات إمتى؟؟"

٣ – في حديقة الحيوان.. يُكرم المرء أو يهان!

وفي حديقة الحيوانات، كان يمكنك أن تمد يديك لتتلمس سعادة الأولاد بنفسك، إذ أصواتهم قد علت، ومرحهم زاد، وتعليقاتهم كثرت، وكأنهم وجدوا ضالتهم أخيراً، وبين قفص وقفص يتنقلون، ويشيرون بأيديهم إلى الأنواع المختلفة للحيوانات، ويضحكون، ويتناقشون، ويختلفون، ويتمرغون في التراب، ويجرون وراء بعضهم البعض!

ولنستطيع السيطرة عليهم، قمنا بتقسيمهم لمجموعات، مع كل مجموعة مشرف، وكانت هذه أول مرة أزور فيها الحديقة، وبالكاد أتحسس طريقي مسترشداً باللافتات، وقوة ملاحظتي المعدومة، وذاكرتي الهزيلة، والأولاد الذين في مجموعتي، مصممون أن يشاهدوا بيت الزواحف، فأقسم لهم إني لا أعرف الطريق إليه، وإننا من الأفضل ألا نغامر "وخلينا في المضمون أحسن"، فيرفضون جميعاً ويقررون المغامرة، فأنصاع لرغباتهم مضطراً، إذ الرحلة رحلتهم، واليوم يومهم على كل حال!

ونبدأ المسير معاً في رحلة عشوائية، نحو بيت الزواحف المجهول!!

وفي الحديقة لا تسأل أحداً عن طريق إلا دلّك عليه فـــوراً، سواء كان يعرف أو لا يعرف، وهو في الأغلب الأعم لا يعرف أي شيء عن أي شيء، إذ معظم زوار الحديقة غالباً من خارج القاهرة، وضيوف عليها مثلنا تماماً، ولكنها جريمة لا تغتفـــر أن يقول لك لا أعلم!

إذ ماذا ستقول عليه بينك وبين نفسك؟

ألا يُمكن أن تُشهّر به في الجرائد وتفضحه؟

وكيف يقابل رباً كريماً في يوم من الأيام وقد ارتكب مصيبة أنه لا يعرف؟!!

وهكذا وبفضل إرشادات السادة الكرماء، من ذوي الجهل الواسع والمعرفة المعدومة، وصلنا للنتيجة الوحيدة المتوقعـــة في مثل هذه الحالة، بعد اللف والدوران، والذهاب والإياب، وهي أننا بكل فخر.. تهنا!!!!

فلا نحن اهتدينا لبيت الزواحف العزيز، ولا نحن ظللنـــا في مكاننا المضمون، وجعلتُ أردد في انسجام بيني وبين نفسي:

- "دي وصفة هايلة.. دي وصفة سهلة"

وتوقفتُ أخيراً في حيرة، وأنا لا أدري ماذا أفعل، وقد تعبت الأقدام، وتقطّعت الأنفاس، ولم يعد أمامي في النهاية، إلا محاولة

الوصول مرة ثانية للبوابة، التي بدأنا من عندها رحلتنا على الأقل، ولكن حتى هذا، لم يؤدِ إلا لمزيد من التوهان، والغريب أن الأولاد كانوا سعداء جداً بهذه النتيجة اللطيفة، وأخذت تعليقاتهم تتصاعد:

- "الحمد الله إن احنا تهنا يا أستاذ وماعدناش هنروح المدرسة"

- "أنا هعيش هنا في جبلاية القرود يا أستاذ"

- "يا رب ما يلاقونا.. ألا العيشة هنا أحسن من بيتنا"

وأنا أكتم غيظي، وأسأل كل من أقابله في إصرار، عن البوابة الرئيسية فيدلني، في إصرار أيضاً، على اتجاه مخالف تماماً لمن سبقه!

والوقت يمر بسرعة، وموعد التجمع فات منذ أكثر من ساعة، وأنا على أعصابي، أحاول بشتى الطرق، الاهتداء لطريق واحد صحيح، وسط كل هذه المتاهات، وأخيراً أخيراً، بعد أن كاد اليأس يسيطر عليّ، ألمح أحد زملائي المشرفين مع مجموعته، قادماً نحوي من بعيد، وهو يشير إليّ في فرح وسعادة، والأولاد معه يهللون ويصفرون، فأقابله بالأحضان، كالغريق الذي يتعلق بقشة، وأُقبّله، وأتحدث إليه في ود:

- "إنت فين يا راجل.. جيت في وقتك"

- "الله يكرمك"

- "أنا سعيد إني قابلتك"

- "أنا الأسعد"

ولم أشأ أن أخبره بأني تائه، وأني في ورطة، وقلت أتركه يمشي، وأتبعه بدون أن يشعر بي، ووقفنا نتكلم ونعيد ونزيد في الكلام، وأنا منتظر أن يبدأ التحرك، ولكنه لا يخطو خطوة واحدة للأمام، ولما طال الأمر عليّ، سألته:

- "إحنا ليه مابنمشيش؟"

- "ما تتفضل"

- "ودي معقولة.. أبداً والله اتفضل إنت الأول"

- "لا أبداً لا يمكن.. حضرتك الأول"

وبدا لي أنه لا ينوي التحرك من هنا أبداً، فقلت بيني وبين نفسي أصارحه بالأمر وخلاص، فهمست له:

- "أصل بيني وبينك.. إحنا تايهين.. ومش عارفين نوصل مكان التجمع.. ده إنت ربنا بعتك لينا نجدة"

فكاد يلطم على خده، ويولول، وهو يقول:

- "يا نهار أسود.. ما أنا كمان تايه.. وكنت فاكرك هتوصلني لمكان التجمع!!"

فنظرت نحوه في دهشة وغيظ، ولم أدرِ ماذا أقول، ثم لم أجد بداً في النهاية، من العودة للتحرك من جديد، وسؤال الناس أيضاً، علنا نصل ولو إلى مكان قريب من مكان التجمع!

وتحركنا جميعاً معاً، وفين وفين على ما وصلنا للمكان المتفق عليه، ولكن لم يكن أحد من الزملاء ولا الطلبة هناك، واعتقدت في يأس، أهم ربما ذهبوا بدوننا، لأننا كنا قد تأخرنا كثيراً بالفعل، وكان هذا نفس الخاطر الذي دار في ذهن زميلي، وبدأنا نفكر في حل لهذه الورطة.

وبعد قليل، بدا في الأفق زميل آخر، حفر الإرهاق على وجهه علامات واضحة، كأنه راجع من الجبهة لتوه، فرح جدًا لرؤيانا، وأقبل هاشًا علينا وهو يقول:

- "الحمد لله إني لقيت حد، أنا كنت فاكركم مشيتم من غيري لما تهت واتأخرت"

وبدت لي الحقيقة فجأة مثل عين الشمس، فالجميع بلا استثناء قد تاهوا، والجميع عانى أشد المعاناة، حتى وصل لمنطقة التجمع بمعجزة!

ومجموعة وراء مجموعة، بدأنا نتجمع من جديد، والكل يلعن الحديقة، وما حدث له طوال اليوم من مواقف فيها، ويقسم إنه لن يطأها برجليه ثانية!

وعند باب الخروج من هذا الجحيم، أوقفنا الحارس العجوز الذي يرتدي نظارة ضخمة، يبدو أنه لا يرى بها أو بدونها، ومنعنا من المغادرة بشدة، وأرسل يستدعي باقي رجال الأمن في حماس، وأخذ يشير نحو الأولاد في هستيريا ويصرخ:

- "أها.. مسكتكم يا حرامية.. عايزين تهربوا الحيوانات دي من عندنا.. بس على مين.. أنا قفشتكم!!!"

٤ – في بيت الرعب

وإلى الملاهي، ذهبنا في نهاية السهرة، وكان الإرهاق قد نال مني، وهد قواي، ولم أعد أحلم إلا بالفراش الدافئ، ومغازلة النوم لعيوني، بينما العفاريت الصغار لم يفقدوا ذرة واحدة من حماسهم وطاقاتهم غير العادية!

وفوجئت بهذا العدد الضخم جداً، من الشباب والبنات والكبار، داخل الملاهي، وبدا كأنه عالم آخر تماماً، مليء بالأضواء والحركة والصخب والحياة.

والأولاد تفرقوا فجأة، وكل واحد ذهب ناحية اللعبة التي شدته إليها، كأنما بحبل خفي، وتركوني وحدي، أنظر في كل اتجاه غير مستوعب للموقف تماماً، ولا فاهماً أي شيء مما يجري حولي، واقتربَ مني أحد الزملاء الشباب، وهمس في أذني وهو يفرك كفيه في حماس:

– "إيه رأيك ما تيجي؟؟"

– "آجي فين؟"

– "يعني.. نركب لنا كام لعبة ع الماشي كده"

- " أيوه يا أخي.. بس يعني.. مايصحش.. العيال يقولوا إيه؟"

- "يا عم سيبك.. نقول لهم بنجرب لكم اللعب..عشان نتأكد إنها مضمونة وأمان"

والفكرة أعجبتني، فالألعاب مثيرة ومليئة بالأضواء، وأنا برضه لسه شباب يا إخوانا!، وممتلئ لآخري بحب الاستطلاع والفضول، ثم أن هناك الكثير من الكبار، وجدتهم يلعبون ويضحكون بلا إحراج ولا كسوف!

وبيني وبين نفسي، كنت أريد أن أطاوعه، ولكني ترددت، حتى جاءت لي بنت "مفعوصة"، كأن الأرض انشقت عنها أمامي، وأمسكتْ بيدي تستحلفني:

- "يا أستاذ.. عشان خاطري.. أنا نفسي أدخل بيت الرعب"

- "كويس.. كويس.. هايل.. ربنا يوفقك"

- "وعايزة حاضرتك تدخل معايا"

- "آه طبعاً.. طبعاً.. نعم؟؟؟؟؟؟.. بتقولي إيه؟؟ أدخل معاكِ بيت الرعب؟؟"

وابتلعتُ ريقي، وأنا أنظر نحوها في قلق، وأقول في سري "يا دي الورطة.. رعب إيه بس.."، ولكن البنت تلح بشدة، وتلف

وتدور، وتذهب وتعود، وهي تحاصرني بالنظرات المتوسلة والكلام المؤثر، وتنظر لي نظرات استعطاف وتكاد تبكي، حتى صعبت عليّ، ومرغماً، وافقتُ، وذهبت معها لابتياع التذاكر، والحق أني فوجئت بالعدد الضخم من الناس الواقفين على الشباك، ينتظرون دورهم في الرعب، وكأن الحياة وتكاليفها لم تعد تكفي لإرعابهم!!

وأنا أقول في سري "إيه يعني بيت الرعب.. ده أنا جامد قوي"، وأركبونا عربة صغيرة بدأت تتحرك واحدة، واحدة، نحو مدخل بيت الرعب، وفجأة زادت سرعة العربة، وبدأت تغوص وسط ظلام حالك، وبين الحين والآخر، يظهر لنا هيكل عظمي خائب يقول: "عو عو"، أو نموذج مشوه لوحش عبيط، وينفتح في عيوننا بغتة ضوء خاطف نافذ، وينطفئ بغتة كذلك، وأنا قد استرحت تماماً لهذا المستوى الهزيل من الرعب، واطمأنت نفسي، بعد خوف، وكل ثانية تمضي، أكاد أضحك من قلبي، على هذا الرعب المرعب الخطير!

ولكن ما أوقف الضحك في حلقي، كان يداً، فجأة امتدت نحو رقبتي، بدون سابق إنذار، وأطبقتْ عليها باستماتة، وبدأتْ تضغط، رويدًا، رويدًا، مع صوت صراخ، لا يمكن أن يكون بشرياً، بدأ بإصرار -غير عادي- يحاول ثقب أذني اليمنى، وإصابتي بالصمم!

ورغم المفاجأة المذهلة، إلا أنني لم أستسلم بسهولة، وحاولت الدفاع عن نفسي، وإزاحة اليد المستميتة على رقبتي، وأنا أسب وألعن الألعاب التي من هذه العينة، فالعمر غال، والروح حلوة، ولكن اليد تتشبث أكثر، والصوت يزداد حدة، حتى أبدأ في الإحساس بنقص الأوكسجين، وغياب الوعي التدريجي، وطلوع الروح..!

وفي آخر لحظة، وبيأس عارم، تحين مني التفاتة عابرة للبنت التي بجواري، علّي أستنجد بها، فأفاجأ بأنها هي نفسها صاحبة اليد المجنونة، والصوت المسرسع العالي!!

إذ من شدة الرعب، لم تتمالك البنت شعورها، وبدأت تتصرف كأي مجنون يحترم نفسه، وتحاول خنقي، بتصميم وإخلاص، لأن سوء حظي، أوقعني بجوارها، في المكان غير المناسب والوقت غير المناسب كذلك!

ولأن الأجل لم يكن قد حان بعد، ومازال في العمر بقية، استطعتُ -بصعوبة بالغة وبعد محاولات مستميتة- أن أهرب من المصير الأسود الذي كان ينتظرني على يديها، وقد انتهتْ الرحلة فجأة، كما بدأتْ فجأة، بعد وصول العربة لباب الخروج، وتحرير رقبتي المسكينة، من عدوان الأيدي الغاشمة المعتدية، بعد طول كفاح ومفاوضات!!

ونزلت من العربة أجرجر ساقي، وأنا أرمق البنت بنظرات، لو أنها كانت رصاصات، لاخترقت جسدها، في كل ناحيـــة وأحالتها إلى مصفاة فوراً!! وجعلت أعدّل من هندامي، وأمسح عرقي، وألملم بقايا كرامتي المبعثرة.

ورأيتُ زميلي يأتي من بعيد، وعلى ملامحه إعياء شديد هـــو الآخر، ويتنفس بصعوبة، ولكن ذلك لم يمنعه من التطلع الحالي في دهشة، ووجدتني أهمس مبرراً:

- "بيت الرعب"

فرد في صوت مماثل:

- "الغربال"

وأشار بيده لبعيد، إلى حيث وجدت غربالاً حقيقياً ضخماً، يجلس على حوافه خلق كثيرون، وهو يتحـــرك بـــهم -بـــلا رحمة- حركات مجنونة في كل اتجاه، ومنهم مـــن لا يتمالـــك نفسه طويلاً، فيسقط فوق الآخـــرين، ومـــن يخـــبط رأســـه بالجدران، ومن يُمسح به قاع الغربال، ولكن الجميع ســـعداء ويضحكون من هذه البهدلة والمرمطة وقلة القيمة!!

وهزني فجأة صوت عات يأتي من الناحية الأخرى، فأدرت رأسي مع زميلي، لنشاهد لعبة أخرى،عبارة عن مركب طويل، معلق بين السماء والأرض، يقوم بدورات جنونية بمن فيه مـــن

البشر، وهم يصرخون، ويولولون، ويضحكون، ويبكون معاً! في مزيج غريب، لا يمكن أن تجده إلا هنا!

واصطدم بي فجأة شيء ضخم من الخلف، فشهقت واستدرت في فزع، لأجد الذي اصطدم بي، إنساناً متنكراً في هيئة غوريلا، مصابة بعته منغولي، وهو يرسم بوجهه تعابير مرعبة ويصرخ ويدبدب بيديه على صدره.

فتراجعت أكثر، و لم أعد أحتمل، أسرعت بالهرب من باب الملاهي، وأنا أقول لزميلي:

- "ياه.. معقولة.. الساعة بقت ١٠.. بسرعة كده.. ده أنا لازم أعمل مكالمة مهمة جداً!"

وأنا لا أصدق أني نجوت من هول هذا المكان، وأقسم بيني وبين نفسي، ألا أتعرض ثانية لهذا الموقف، وتسحّبتُ إلى الأتوبيس، محاذراً أن يلمحني أحد من الزملاء، حتى لا يطيل لسانه عليّ، ويقول كلاماً "مش ولابد"، ولكن ما إن دخلت إلى الأتوبيس، حتى فوجئت بأن السادة المشرفين موجودون جميعاً، بين مسترخٍ في إعياء، ودائخ، ومرتجف، وفاقد للنطق، فألقيت السلام، ودخلت بشجاعة أكثر الآن، وأنا أهمس:

- "لا تعايرني ولا أعايرك، الهم طايلني وطايلك"

٥ – مملكتي مقابل فراشي

وبدأ شبه الأتوبيس التحرك بنا أخيراً نحو الوطن، فلا أماكن بقيت لنشاهدها، ولا جدول نلتزم بـــه، ولا صـــياح أولاد أو شجار، إذ هم أخيراً قد هدّهم التعب والـــشيطنة، وأســـلموا أنفسهم لنوم لذيذ وعميق، ولا شيء يفكر فيه الجميع ويرغب فيه بشده الآن مثل النوم.

وأنا مرهق لاشك، وجسدي يـــشتكي لطـــوب الأرض، وأحس بأني طائر في سماء عالية ملبدة بالغيوم، أصعد وأهـــبط، رأسي خفيفة وجسدي أخـــف، ألف وأدور مع النجـــوم في السماء!

فأغمض عيني بشدة، وأضع يدي على صـــدري، وأســـند رأسي على ظهر الكرسي، وأقرأ الفاتحة والمعوذتين، ومع ذلك يأبى النوم أن يقترب مني!

ويبدو أنني من شدة التعب، لم أعد قادراً علـــى اصـــطياد النوم، مهما أغريته، ومهدّت له الطريق، وبـــذلتُ لـــه مـــن التضحيات و لم أجد أمامي –في النهاية– إلا أن أسلّم أمري لله، وأقلع عن المحاولات الفاشلة للراحة، وأرمي ببصري للمنـــاظر

المغلفة بالأسود، التي تتوارد أمام عيني من خلال النافذة الكسيحة.

غريب هو الليل، وسوف يظل أبداً غريباً، الصمت والجلال والنقاء والغموض والأبدية، والذكريات، آه، من الذكريات، أيام الجامعة، والرفاق، والأحلام المبسوطة أمامك على مد البصر، والتي لا يمكنك أن تتصور -ولو للحظة- أنها ستفنى وتنتهي، وأنها أبدًا لن تتحقق، والقلب الصغير الأخضر البكر الذي يثق بالدنيا وما فيها، والمشاعر التي تنبت من حبات الندى، ولمعان النجوم، وعنفوان الشباب وبراءته، والحب، عندما يدق على استحياء أبواب قلبك، بأطراف أطراف أصابعه، كأنما ليستأذنك، وهو لا يستأذن أحدا، كأنما لينبهك، وهو لا يأبه لأحد، الحب، وما أدراك ما الحب!

ما الذي يحدث لنا عندما نكبر قليلاً، وتأخذنا الحياة العملية في سكتها؟

أين تذهب أحلامنا التي لم نحققها؟

هل يحققها أناس آخرون، لم يحلموا بها قط؟

أم أنها تستحم في دماء النسيان؟

أين يغيب صفاؤنا؟ ونقاؤنا؟ وبراءتنا القديمة؟

ما الذي يكتم أنفاس الحب؟

ولماذا يكف القلب عن النبض والرعشة في حضرة الجمال؟

كيف تشغلنا الدنيا عن أنفسنا؟

ولماذا يموت بداخلنا كل يوم حلم أو اثنان من أحلام الأمس؟

و... و...

أقوم من مكاني، وأجلس، وأقوم ثانية، ثم ألقي بنفسي على المقعد في إرهاق، وأنا أكاد أجن، وخواطري السوداء تتدفق بي عبر طريق وعر وخطر، فأحاول من جديد استجلاب النوم العصي، بأي ثمن، النوم، النوم، من يأخذ مملكتي ويعطيني قليلاً من النوم الآن؟

ولكن النوم كالمرأة، لا تطرق بابك إذا طلبتها، ولكنك إن أهملتها، عادت تتمسح بك كالقطة الوديعة المؤدبة!!!

وأنا أحاول ألا أطلب النوم، فأسرح، ثانية، لبعيييييد..

هل من المستحيل أن يعمل الإنسان، ويكافح، ويبني مستقبله، ومع ذلك يتمتع بحياته؟

إلى متى تظل أحلامنا مؤجلة؟ وخائفة؟ ومحرّمة؟ ومنفية خارج حدود الوطن؟

وما الذي تخبئه لنا هذه الحياة أكثر مما أرتنا؟

لماذا أصبحت البسمة مطلباً عسيراً على كل إنسان؟

ولماذا أصبحت السعادة سفينة مستحيلة، ينتظرها الجميع ولكنها لا تأتي أبداً؟

لماذا نعيش إذن؟ ولمن؟ وإلى أين نمضي؟

والأتوبيس يمضي، كوحش خرافي، من أعماق كتاب ألف ليلة وليلة، يمضي، وخواطري تمضي معه.

أين كنتُ من عام واحد، في نفس هذا الوقت بالذات؟

ماذا كنت أفعل؟ وكيف كان إحساسي؟ وبماذا كنت أحلم؟

أين أحبائي الآن في هذه اللحظة؟

ماذا يفعلون؟

وبماذا يفكرون؟

هل مازالوا يذكرونني؟

وإذا كنا سنفترق ذات يوم، فلماذا التقينا؟

أين سأكون بعد عام آخر، في مثل هذه الوقت؟

مَن سأقابل بعد شهر؟

مَن منا سيموت غداً؟ ومَن سيولد؟

أسئلة، وأسئلة، ولا إجابة واحدة، تستطيع أن تمسكها بيدك، وتواجه بها طوفان المشاعر في أعماقك.

والنوم، النوم الذي جافاني، ولا يريد أن يرحمني، ممعن في هجره وصده، كأنه الحبيب الذي يتدلل!

أحياناً، أريد أن أفعل شيئاً عظيماً جداً، لم يخطر على قلب بشر، تتحدث عنه كتب الأساطير والحكايات، وترويه العجائز ليلاً لأطفالهن على ضوء الشموع، ويفاخر به أبي وأمي، وكل من عرفني يوماً، ويندم عليه، كل الذين ظلموني، أو خانوني، أو أهانوني، أو لم يصبروا عليّ، و لم يقدّروني حق قدري!

وأحياناً، أتمنى ألا أفعل أي شيء على الإطلاق، فلا شيء له معنى، ولا إنسان يستحق!

وفي حيرتي أغرق، وفي شجني أغوص، وبضياعي أتلفع، ولصمتي ألجأ وأستكن، ومع وحدتي أتخبأ وأموت!

والنوم، أين أنت يا نوم؟، لماذا لا ترحمني، وتطبق على أنفاسي؟؟

حتى أنت يا نوم؟! حتى أنت؟!

والدنيا تلف، والأيام تدور، والسنون تمضي، والحياة تتقدم، ونحن معها، مرة برضائنا، وبرغمنا مرات!

والليل لا يرحمني، والنوم لا يرحمني، والذكرى لا تـــرحمني، فمن يرحمني، من؟؟..

وأعود للمحاولات المستميتة، لعقد صلح ولو مشروط مـــع النوم، دقائق أو ثوان يا نوم.. دقائق.. أو ثـــ.. ثـــو.. آه ه ه.. خخخخخ .. خخخخ.. النو.. نوم.. جا.. جاء.. هممم...

ولكن النوم لا يفرد عباءته عليّ طويلاً، إذ يبدو أننا كنا قد وصلنا، فالصوت عاد يرتفع، والكلام يختلط، والكل يبـــدو في عجلة من أمره، فقمت من النوم فزعاً، وأنا لا أكاد أدرك تماماً أين أنا...

وكان شبه الأتوبيس البطل، قد رسا بنا أخـــيراً، وبمعجـــزة مذهلة، تشبه معجزة خلق الإنسان مـــن تـــراب! بـــدون أي حوادث أو إصابات، والكل بدأ يلملم حاجياتـــه، ويـــستعد للمغادرة، ومصافحة الزملاء، وكنت بدوري أهـــم بمغـــادرة الأتوبيس، غير مصدق أن هذا اليوم الطويل المرهق، قد انتـــهى على خير، عندما سمعت السائق يزمجر فجأة، ويسب ويلعن، مما بدا لي عجيباً بعض الشيء، فسألته في دهشة:

- "خير يا أسطى؟"

- "تصور يا أستاذ.. طول الوقت وأنا حاســـس إن عـــيني مزغللة حبتين.. والطريق يعني.. ولا مؤاخذة.. مـــش واضـــح

قوي.. وأنا مطنش وبقول تهيؤات.. ودلوقتي بس عرفت السبب"

- "وإيه السبب يا أسطى؟"

- "أصل أنا كنت لابس نضارة مراتي.. وحاسبها نضارتي.. ودلوقتي بالصدفة.. بحط إيدي في جيب القميص.. لقيت نضارتي موجودة.. تصور!!"

ووجدتني أحدق فيه ببلاهة منقطعة النظير، وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع، والدنيا تلف وتدور بي فجأة، وأكاد أفقد الإحساس بكل ما حولي، ولكني بإرادة فولاذية، أتحكم في نفسي، إذ لا داعي للفضائح على آخر لحظة، وأسرع بالابتعاد، دون أن أقدر على النطق بكلمة، وأنا أتحسس جسدي، قطعة قطعة، ولا أتصور أني مازلت سليماً فعلاً، وعلى قيد الحياة!

عن الرحلات سألوني (٢)

١.غاوي لدغ

ولما كان المؤمن، لا يلدغ من جحر مرتين ، فبماذا يمكن أن أصف نفسي ، عندما أوافق ــ للمـرة الثانيـة ــ علـى الإشراف على رحلة المدرسة إلى القاهرة المحروسة ، غـير أني ، غاوي لدغ !!!

ولكن الحق أقول لكم، أن موافقتي هذه المرة ــ مثل المـرة السابقة !! ــ لم تكن بإرادتي الحرة ، ولا رغبتي الميمونة ، وإنما تحت تهديد السلاح ، الذي هو طبعاً " لسان " الناظر العزيز ، الذي لوح لي كالعادة " بالتقرير السنوي " ، وحريته في منحي ما يشاء من تقديرات ، وثقته في تحملـي مـسئولية الأولاد ، وحريتي في القبول أو الرفض و.. و.. .. حتى وافقتُ وأنـا في شك ــ يكاد يقترب من اليقين ــ من سلامة قواي العقلية !!

وجاء يوم الرحلة ، أسرع مما أتوقع !

وفوجئت، بنفس الأتوبيس الفاخر، الذي أكل عليه الـدهر وشرب ونام وقام وتمشى فتركـه آيـة للنـاظرين ، وعـبرة للمعتبرين، إذا اعتبروا !

وبالطبع ، نفس السائق المعجزة، الذي استقبلني بمظاهرة صاخبة ، وأحضان ، وسلامات ، والسؤال الذي لا ينقطع — كأني من باقي عائلته ! — عن الصحة والحال ، والرحلة " السعيدة " التي ضمتنا سوياً من قبل ، وما حدث وما كان !!

وأنا أستجدي الابتسام، وأضع يدي على قلبي، وأضغط عليه، بأقصى ما أملك من قوة في الواقع، حتى لا يقفز من صدري هارباً، وأجدني ألقي بنفسي، خارج هذا الأتوبيس المصيبة ، مفضلاً الحياة سليماً معافى ، على " التقرير السنوي " المنتظر !

ولكني تماسكت بمعجزة ، وبدأت أحاول طمأنة نفسي بنفسي ، فرحت أردد أن العمر بيد الله وحده ، وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، ثم من يعلم — إذا كانت هذه الرحلة تذكرة ذهاب بلا عودة— أليس من المحتمل أن مقابلة ملك الموت أفضل ألف مرة من مقابلة طلابي الأعزاء مرة أخرى ؟!

ومعي، جاء هذه المرة ، ابن أختي الصغير "عمر"، يحمل سنواته الخمس وعينيه المندهشتين دائماً ، وابتسامته الطفولية البريئة ، التي أتعجب من أين يأتي بها ، في زمن لم يعد للبراءة فيه موضع قدم !!

وهو يمني نفسه ، برحلة لا تنسى ، وقد وعدته أن أدعه يركب" الجمل " و " الحصان " في الأهرامات ، وأريه "

الأسد" و " القرد " في حديقة الحيوانات ، وأُركبه " العربـــات المتصادمة " في الملاهي !

وما إن فتح السائق الباب ، حتى بدأ الجراد ينتشر فجأة من حولنا ، والتسابق على الكراسي المتهالكة يشتعل ، والصياح ، والشجار ، وحصاد الألسنة الراقي المتميز ، ينهمر على رؤوسنا من حيث لا نحتسب ، والأتوبيس الرائع ، يزمجر ، ويرتعش ، و يهتز ، معلناً عن رغبته المشروعة في التحرك وبدأ الرحلـــة ، ولكنه لا يتحرك ، فالنوايا الطيبة ــ فيما يبـــدو ــ لا تكفـــي وحدها لتشغيل أجهزته !

فيعيد السائق إدخال المفتـــاح في " الكنتاكـــت " ويعيـــد المحاولة، مع ركلة أو اثنتين من قدمه الـــضخمة ، ثم يـــسبه في النهاية مثنى وثلاث ورباع ، حتى يـــرق قلـــب الأتـــوبيس في النهاية، ويستجيب لمعاملة السائق الرقيقة، ودعـــوات قلـــوب الطلاب المخلصة ، فيتحرك ، على مهل، وفي تؤدة ، وبلا ذرة واحدة من تعجل أو نية للإسراع !

والأولاد ، يبدءون حفلة السمر المعتادة ، التي يبـــدو أن لا شيء قادر على التأثير فيها ، لا حر ولا برد ولا مطر أو حـــتى زجر المدرسين ، المصابين بالـــصداع دائمـــاً ، و يتفنـــون في الأغاني ، التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي أسمعها ــ غالباً

ـــ لأول مرة ، و " عمر " العزيز ، بعد قليل ، يندمج في هذا الجو ، القريب جداً من طفولته ، ويغادر مكانه الأمين ، على رجلي ، ويترل ، ليشارك بنفسه في " السيرك " القائم أمـــام عينيه ، ويرقص مع " الأوغاد " الصغار ، ويطلق من جديـــد ضحكته الساحرة !

وكنت أراقبه في سعادة ، وراحة بال ، لم تلبث أن تحولت بعد قليل ، إلى نوع من الحقد الصريح ، كاد يؤدي إلى تـــوتر العلاقات الدبلوماسية بيننا للأبد !

فبعد قليل ، انتهت أولى وصلات الغناء العربي الأصـــيل ، وتسابق الأولاد والبنات ، على الترحيب بـــ "عمر" باعتبـــاره قريب أستاذهم العزيز ، فراح يتنقل كملك متوج بـــين هـــذا وهذا وهذه ، ويحظى باحترام ومعاملة مهذبة ، لم يحظ بهـــا " خاله " نفسه ، منذ بدأت فترة تجنيده الإجبارية في مدرســـتهم الخلابة !!

ولكنه حظ الطفولة والبراءة على أية حال !

ومنذ وطئت قدماه أرض الأتوبيس وهـــو يتلقـــى مـــن " المعونات " الغذائية ، وجميع صنوف الحلوى و الـــشيكولاتة ، ما لم أره في حياتي ، أو أسمع أنه حل ضيفاً مكرماً على قـــوائم محلاتنا العزيزة ، وما كان كفيلاً بحل أزمة الغـــذاء في جنـــوب أفريقيا بكامله !

والحق أنه لم يكن ينساني ، وسط انشغاله الشديد بالأكـــل والفرفشة ، فبعد أن يلتهم ما فيه النصيب ، يشير إليّ ، فأهرول إليه ، وعندي أمل خفي ، أن أتذوق مما في يده ، ولو قطعـــة صغيرة ، فإذا به ، يُسقط في يدي ، غلاف الـــشيكولاتة ، أو البسكوتة ، التي أتى عليها كلها ، فقط ، لألقيها من النافـــذة ، ويغرق هو في الضحك والأكل واللعب من جديـــد ، دون أي مبالاة بمشاعري ، أو تعاطف مع حالي !!

وما زاد وغطّى ، أنه بين الحين والآخر ، يحـــاول لفـــت انتباهي إليه فيقف على أي كرسي يصادفه ، ويصيح بـــأعلى صوته ، وهو غارق في لعبة ما ، مع أحد الطلبة :

ــ " خلخولة .. خلخولة " ..

وهو - إحم - يداعبني بهذا الاسم ، كما لاحظتم ، لكـــن هذا كان يتم في مترلنا وبين أبي وأمي ، ولكن الآن ..وســـط الطلاب الأعزاء ، فقد كانت مصيبة حيث بدأ الغمز واللمـــز وكتم الضحكات وهم يستعيدون الاسم مراراً ، وفي الـــسر ، وكأنهم عثروا بالصدفة على كتر خفي !

وأنا مضطر للابتسام بالطبع ، ومجاراة " عمر " ، ومشاهدته وتشجيعه ، حتى لا أُحزنه ، أو أعطي للأولاد انطباعـــا بـــأني لاحظت ما يفعلون !

وأتنهد بين الحين والآخر ، وأدعو الله في سري ، أن يلطف بنا ، ويبلغنا مآربنا سالمين ، ولا تنتهي الرحلة بمصيبة أو كارثة ، حتى لا يشمت بنا " الناظر " ، وتضيع تضحيتي بمرافقة الأولاد هباء !

ولفت انتباهي فجأة ، صوت محادثة ترتفع ، بين السائق ، وأحد المشرفين ، فاقتربت من مجالهم الجوي ، ورحت أُنصت بحرص :

ــ " بس يا أسطى البلاد دي ..غريبة قوي .. ومش موجودة على طريق القاهرة ؟ "

فالتفت إليه السائق بدهشة و بدا كأنه يخاطب مجنوناً :

ــ " طبعاً يا بيه ، البلاد دي مش موجودة على طريق القاهرة ! "

فاندهش زميلي ، واندهشت معه ، فصحت فيه :

ــ " يعني إيه ؟ "

فعاد يرد في بلاهة :

ــ " يعني إيه إيه ؟ "

فغلى الدم في عروقي ، وبدأت أخمن الكارثة المرتقبة فسألته:

ـــ " ممكن سؤال يا أسطى ؟ "

ـــ " يا سلام .. قوي .. قوي .. اتفضل "

ـــ " إنت عارف الرحلة دي راحة فين ؟ "

فابتسم في استخفاف ، وأجاب بكبرياء :

ـــ " طبعاً يا أستاذ .. إسكندرية .. ودي عايزة سؤال ؟ "

هذا ما توقعته، وصـــرخت فجأة، بصوت افزع كل من في الأتوبيس وربما من على الطريق كله :

ـــ " وقّف الأتوبيييييييس " .

فاستجاب السائق في حركة آلية ، ومد قدمه للفرامل فـــوراً وضغط عليها بكل قوته ، فاستجابت بعد حوالي خمس دقـــائق بالطبع ، وخرج الأتوبيس عن مساره ، وكاد ينقلـــب رأســـاً على عقب ، والسائق يصيح في وجهي :

ـــ " جرى إيه يا أستاذ .. كنت هتموتنا .. فيه إيه ؟ "

فتمالكت أعصابي ، ووضعتها في لوح من الثلج ، وأنا أقول له :

ـــ " مين اللي قال لك أن الرحلة دي راحة إسكندرية ؟ "

فابتسم في دهشة ، وقال :

ـــ " ما انتو رحتم القاهرة قبل كده .. قلت نغيّر بقـــى .. غلطان أنا يعني .. غلطان ..هه ؟! "

فكدت أبكي وأولول ، واخبط رأسي في جدار الأتوبيس ، لولا خشيتي عليه أن يتحطم ــ جدار الأتوبيس لا رأسي ! ــ وعدت أقول له :

ــ " لا يا أسطى ..مش غلطان ولا حاجة .. إحنــا اللــي مش وش نعمة!! "

ثم أمرته ، بتغيير مساره ، ومعاودة الاتجاه إلى القــاهرة ، وأنا أهمس في سري :

" يا رب .. المرة دي بس .. بس المرة دي يا رب .. نجينــا من المهالك ..وغباء السواق ده ..وتوبة .. توبة لــو عملتــها تاني.. إن شاء الله حتى ..تسخطني قرد !! "

وأضع يدي على قلبي ، وأعلم أن ما ينتظرنا هذه المــرة ، لا شك رهيب .. رهيب ..

٢.يبقى أنت أكيد في مصر ! !

أولى المحطات ..كانت الأهرامات !

ولكن يبدو أن " مزاج " الأهرامات ..لم يكن على ما يرام هذه المرة !

فقد استقبلتنا بالرمال في العيون ، وأشعة الشمس اللاهبة فوق مركز الدماغ مباشرة ، والزحام ، والعرق ، والضوضاء ، ورغاء الإبل ، وصهيل الخيل ، وصياح البشر المتدفقين ، من كل حدب وصوب !

وعسكري طويل ونحيل ، يعترض طريقنا ، ويطالبنا في إصرار ، بالوقوف في طابور ، لا أول له ولا آخر ، لقطع التذاكر ، في حين يمر " السياح " بكامل حريتهم ، من هنا لهناك ، دون أن يعترض طريقهم احد ، أو يفكر في تعكير صفو حياتهم البهيجة !

حتى أحسست أني فعلاً .. فعلاً .. في مصر !

ونضطر طبعاً أن نقف ، وبعد أن نقف .. نقف ، ثم نقف، فنقف، وبعدها .. نقف ، إلى أن نقف ، وفي النهاية لا يكون أمامنا .. إلا .. أن نقف !!!

ويأتي ليل ، ويرحل ، ويشرق نهار ، ويأفُل ، وتمـــر أيـــام وأسابيع وشهور وسنون ، وتزهر حضارات ، وتموت ، وتقوم القيامة ، ونحن ما نزال واقفين أمام جناب العسكري الهمام !

حتى تصورتُ ، وتصور الطلبة الأعزاء ، أن هـــذه نهايـــة الرحلة ، وربما نهاية الحياة ذاتها !

ولكننا أخيراً ، استطعنا الظفر بالمراد ، بفضل رب العبـــاد ، وامسك كل واحد منا ـــ في النهاية ـــ بالتـــذكرة الغاليـــة ، وسارع باجتياز البوابة ، للفوز برؤية هـــذا الأثـــر العظـــيم ، ولكن.. يبدو أن الوقت لم يكن قد حان بعد !

فوراء البوابة ، بوابة أخرى ، ووراء كل عسكري يذهب ، عسكري تنشق الأرض عنه ، ويطالبنا هذه المرة ، بأن يفتشنا.. جميعا!

ودون أن يكون لدينا حق الموافقة أو الرفض ، يمـــد يـــده المدربة ، ليتحسس أجسادنا ، فنحن كأية رحلة مدرسية تحترم نفسها ، لابد أن نكون قد أمّنا أنفسنا جيداً ، بقنبلة أو اثنتين، في حقائب الظهر ، ولا يخلو الأمر كذلك من عـــدة مـــدافع رشاشة صغيرة وسط السندوتشات ، وبـــضع مـــسدسات في الملابس الداخلية ، وربما مجموعة " مطاوي " أيضاً !!

وبانت خيبة الأمل على وجهه ، عندما لم يجد معنـــا غـــير الساندويتشات والبسكويت، وظل يرمقنا في شك ، ثم لم يلبث

أن سلم أمره للمولى ، وتركنا نعبر ، بعد أن جعلنا نمر ـــ كان هذا أمله الأخير ! - أمام الكلاب البوليسية الفـــاخرة ، الـــتي ترمقك في عزة نفس وكبرياء ، لـــم أرها من قبل ، إلا علـــى وجوه السادة الوزراء ، في التليفزيون ، وهم يفتتحون مشاريع الدولة العملاقة !!

وأخيرا جداً .. لاحت الأهرامات .. ووقفنـــا أمامهـــا .. لاهثين .. وجهاً لوجه ..

وارتميتُ على الرمال ، وارتمى معي باقي المشرفين ، لنلتقط الأنفاس ، بعد وجبة العرق والشمس والتراب الدسمة !

أما الأولاد الملاعين ، فلا شيء يؤثر فـــيهم ، ولا يوجـــد لكلمة " تعب " في قاموسهم ، أي معنى أو مرادف !

ضحك ، ولعب ، و استغماية، وتنطيط ، ومشاغبة !

إلا " زينهم " !

و" زينهم " لمن لا يعرف ، واحد من قادة الثورات الشعبية في فصلي، وفي المدرسة كلها ، بل والقرية ، من أولها لآخرها، وربما المحافظة والقطر المصري بكامله ، لو فقط أتيحـــت لـــه الفرصة ، ليعبر عن نفسه بحرية !

وهذه المرة ، كان " زينهم " يفكـــر في شـــيء خطـــير ، ويسعى لتنفيذه ، فهو يرغب في إجراء محادثـــة مـــع إحـــدى السائحات الأمريكيات ، والحصول على صورة معها!!

صحيح أن علاقتك باللغة السنسكريتية ، لاشك ، أحسن بمراحل ، من علاقته باللغة الإنجليزية ، ولكن هذا العائق " التافه " لا يمكن أن يقف أمام من كان في حماس ونشاط وجهنمية " زينهم " العظيم !

وعلى مهل ، بدأ معظمنا ، يقوم للتجول بالمكان ، والاستفادة من نسمة الهواء الباردة ، التي بدأت تهب على استحياء ، فتنعش نفوسنا ، وتعيد إليها شيئاً من نشاط .

و " زينهم " يحتشد ، ويركز ، ويدير عينيه الحادتين فيما حوله ، لينتقي ضحيته!

و "عمر" العزيز، بعد أن كان يتمنى ركوب "الجمل" و "الحصان"، يرتجف الآن من مرآهم، ويتخبأ خلفي، ويطالبني بسرعة الابتعاد عن طريق هذه الحيوانات المخيفة ، ثم لا يهون عليه ـــ بعد قليل ـــ أن يظل سائرا على قدميه ، و " خالو " موجود ، فيقرر فوراً ..أن " يركبني "!!

وفوق كتفي ، يجلس ويستريح ، يفتح علبة العصير التي اشتريتها له ، من حُر مالي ، ويبدأ في الاستمتاع بطعمها ، في هذا الحر الرائع ، يضحك في سعادة ، وحول رقبتي ، تلتف أصابعه الدقيقة ، القاسية أحياناً ، وقدمه " تدبدب " على صدري ، علامة " الانشكاح " و " الصهللة " !

ويرى الطلبة الأعزاء ، مدرسهم الهمام ، وهو في هذا الوضع البديع ، فيبتسمون في تفهم ، ويشيرون نحوي ، بطرف خفي ، وهم لا يكفون عن التهامس والغمز !

وفجأة أسمع صياحاً وتهليلاً وأرى تجمعاً من الطلاب و"زينهم" في وسط المظاهرة محمولاً على الأعناق والجميع يقتربون مني !

ـــ " فيه إيه يا ولاد ؟ "

ـــ " زينهم .. زينهم يا أستاذ .. "

ـــ " خير عمل إيه ؟ .. عملت إيه يا زينهم ؟ "

ولكن " زينهم " لا يتكلم وإنما يشير بيده في عظمة للطلاب فيتكلم أحدهم في حماس واللعاب يتساقط من فمه في كل صوب ، فيغرقنا :

ـــ " زينهم يا أستاذ .. كلم واحدة سايحة .. قدامنا .. وقعد معاها يجي ربع ساعة بحالها !! "

فابتسمت ، ولم اصدق حرفاً واحداً بالطبع مما أسمع ، وقلت لـ " زينهم " :

ـــ " انت دفعت لهم كام يا زينهم .. عشان يقولوا كده ؟"

فتضايق " زينهم " ، وقال في تحد :

ـــ " ما دفعتش ولا مليم يا أستاذ .. وإذا كنت مش مصدقني .. السايحة الأمريكية واقفة لسه هناك أهي .. تحب تكلمها ؟ "

واستفزني " زينهم " ، فقبلت تحديه ، وقلت له :

ـــ " أيوه يا زينهم "

فترل " زينهم " من فوق أعناق الطلاب وسار بصحبتي حتى مكان السائحة الأمريكية التي استقبلته بود وابتسامة خلابة أطارت عقلي وجعلتني أراوح النظر بينها وبين " زينهم " كل ثانية في شك وعدم تصديق !

وأراد " زينهم " الهمام ، أن يبهرني ، فبدأ يخاطبها ، ويتحدث إليها ، بلغته العرجاء ، المكونة من الزمجرة ، والسعال ، والخرفشة ، والنهيق أحياناً !! ، والإشارة بملامح وجهه ، ويديه ، ورجليه ، وكل جسده ، وبعض الحروف الإنجليزية ، المعجونة باللهجة الدارجة المصرية !

وهي تضحك على دعاباته ، وتصفق بيدها كالأطفال ، وتنظر لي لمدة ثانية واحدة ، ثم لا تلبث أن تركز بصرها عليه وحده ، من جديد ، وتنصت في اهتمام شديد ، يوحي بفهمها لكل ما يقول !

وأنا أكاد أجن ، أو أصاب بـ " الفالج " على أقل تقدير !

حتى جاء أحد المصريين فجأة ، وأمسك "زينهم " من يده في قوة ، وهو يقول :

ـــ " انت بتعمل إيه هنا ؟ "

وارتعش " زينهم " الهمام من المفاجأة ، خاصة ، لما رأى ضخامة الرجل ، وصرامة ملامحه ، ولكني تدخلت لإنقاذه فوراً فرفعت يد الرجل من عليه وقلت له :

ـــ " مفيش حاجة يا أستاذ ، ده كان بتكلم مع السايحة دي، وواضح إلها مبسوطة منه قوي ، حتى اسألها ! "

فنظر نحوي الرجل غير مصدق ثم إلى "زينهم" و لم يلبث أن اندفع في نوبة ضحك هستيرية، ثم سحب السائحة من يدها وأولانا ظهره وهو يقول :

ـــ " انتو باين عليكم مجانين ، دي ما بتسمعش ولا بتكلم ، أنا مرافق الوفد تبتاعها ، وكنت بشتري لها حاجة !! "

وقبل أن يختفيا من أمامنا للأبد، عادت السائحة الأجنبية تُلوّح لـ " زينهم " من جديد ، وهي ما تزال تبتسم ، وتنظر إلينا في براءة ، وتتعثر في مشيتها !

و "زينهم" العزيز ينظر نحوي تارة، وإلى زملائه تارة أخرى، ويحاول أن يعثر على لسانه في فمه، ولكنه لا يستطيع أبدًا، فيكتفي بالصمت البليغ !

٣.اللص والطلاب !!

هلل الأولاد ورفعوا أصواقم بالصياح والوكوكة والنـــهيق والهوهوة والنونوة والصفير وما لذ وطاب من أصوات حيوانات ما قبل التاريخ وحيوانات اليومين دول، عندما عرفوا أن محطتنا التالية سوف تكون "متحف الأسماك"!!

وهم قد تصوروا أن الأمر لاشك له علاقة بعزومة سمـــك في الطريق إليهم!

لكن سرعان ما بدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم، عندما لاح لنا المكان بشكله الجهم وعدم اقتراب أحد منه على بعد عشرة كيلو مترات على الأقل!!!

وبعد أن دخلنا أول قاعة تضاءلت أحلامهـــم وتواضـــعت بشأن العزومة حتى وصلت إلى سندوتش فول وطعمية .. بس هو يجي !!

المنظر كان يستحق التسجيل بكاميرا ديجيتال، وهم يلتفون حول سمكة عملاقة محنطة، وينظرون إليها في دهشة:

ـــ " السمكة دي أكيد كانت بتاكل بـــني آدمـــين مـــش سمك!".

ـــ " ودي اصطادوها بالمدفع ولا المنجنيق؟".

ـــ " يا حمار.. أكيد فضوا ميـــة البحـــر الأول وبعـــدين اصطادوها!"

ـــ "الحقوا .. ده بُقها بيتحرك!"

وساد الهرج والمرج، والأولاد يجرون من كل مكـــان وإلى كل مكان أيضًا، والذي يقسم أن السمكة لعبّت لـــه ذيلـــها، والذي يحلف بأغلظ الأيمان أنها نظرت نحوه بعينها وغمـــزت، والذي ظل يردد في شبه هذيان أن السمكة قالت له بـــالحرف واحد " هاكلك .. يعني هاكلك.. هتروح مني فين؟".

وتحول المكان إلى كابوس يسعى الجميع إلى الفرار منه بأي ثمن!

الأولاد اندفعوا إلى باب الخروج، والأساتذة تكتلوا يحاولون منعهم حتى لا يضل أحدهم ويتخرب بيتنا!

والمشرف على الرحلة مصمم على الالتزام بجدوله الـــزمني، وليس لديه مكان بديل يصلح للزيارة في هذا التوقيت، ومـــن ناحية أخرى فهو لا يمكن أن يستـــسيغ فكـــرة الـــسير وراء خيالات حفنة أطفال مجانين!

فجأة قال أحد الأولاد : "بصوا .. إيه اللي هناك ده؟"

وتدافع الجميع ليشاهدوا ما لفت انتباهه، فإذا بـه حـوض ضخم بديع مبني داخل الحائط، تسبح بداخله أنـواع عديـدة ومتنوعة من السمك النادر غريب الشك والهيئة!

وعاد الجميع للتجمهر أمام الحـوض وارتفـع الـضحك والفرفشة والهزار فجأة وكأن شيئا لم يحدث منذ ثوان!

فلتحيا ذاكرة الأولاد المعدومة!

مضت لحظة وإذا بأحد الأولاد يـشير إلى سمكـة بعينـها ويهمس باستغراب:

ــ "السمكة دي أنا عارفها!".

ــ " إيه كنت ماشي معاها قبل كده ولا إيه؟".

ــ " تكونش هي اللي علمتك العوم؟".

ــ " ولا كانت معزومة عندكم على الغدا .. وكانت هي الغدا؟".

قال الولد في نفاد صبر:

ــ " يا جدعان استنوا بس ..مش دي سمكة بلطي؟"

انتبه الجميع فجأة وحدقوا ــ وأنا معهم ــ في الـسمكة محل النزاع، لنجدها بالفعل سمكة "بلطي" عادية جدًا مما كنـا نأكله ــ زمااااااااان ــ في بيوتنا، ولكن ماذا تفعل هنا وسط الأسماك النادرة، شيء غريب فعلا!!

هل كتبتْ مع المتحف عقد عمل ؟!

أم أنها هاربة من الثأر؟!

أم أن غلو ثمنها وارتفاع شأنها في الأيام الأخيرة جعلها من المخلوقات النادرة التي لم يعد يحق للمواطن المصري إلا التحديق فيها عبر زجاج واقٍ؟!

ويبدو أن السمكة قد أحست بتحديقنا المبالغ فيها، فهربت بقشورها، واختبأت لا ندري أين، ولكن بالتأكيد عند سمكة "بوري" زميلة!!!

المشكلة أن المكان قد أُصبح بعد خمس دقائق على الأكثر مملاً بكل معنى للكلمة، وبدأ التثاؤب والتململ والجلوس على الأرض، بل إن أحدهم راح يُسلي وقت فراغه بمحاولة التقيؤ على زملائه!!، فلم يكن فعل الفرجة بقادر على أن يسلسل جموح هؤلاء الشياطين أو يُشبع حماسهم الذي يفوق حماس الزمالك للخسارة في مبارياته الأخيرة!

فجأة دوى صوت يبدو غريبًا ودخيلاً على المكان، كان صوتًا عاليًا يتكلم بلا تروٍ وبعبارات سريعة متلاحقة، تحمل شحنة كبيرة من التوتر والقلق، ومن فتافيت الحديث المتناثرة وقبل أن يهل علينا بطلعته البهية كنت قد خمّنتُ ما يحدث!

كان لصا مسلحًا!!

وكدت أبكي .. فما يحدث لي كثير.. كثير جدًا هذه الأيام!!

دخل اللص وهو يضع على وجهه قناعًا مما نراه في الأفلام الأمريكية، ويجرجر أحدهم أمامه ويغرس في رقبته مسدسًا بهيج المنظر!!

لم أكن أدري من الضحية بالضبط، ولكن كرشه الضخم المترجرج وخدوده الحمراء المليئة بالصحة والعافية جعلتني أعتقد أنه المدير!!

وكان عزائي الوحيد أن هناك من يمر ـــ أخيرًا ـــ بموقف أسوأ مني!!

صاح اللص بصوت أجش :

ـــ " كل واحد يطلع اللي في جيوبه ويرميه على الأرض".

فيلم أمريكي .. فيلم أمريكي يعني !!

قلت للأولاد والزملاء : "نفذوا كل طلباته".

وأخرج كل منا ما في جيبه ورماه على الأرض، فتافيت فلوس على أكياس "شيبسي" و"جيلاتي" و"فيشار" ، والمفاجأة.. "سمكة" غريبة الشكل يبدو أن أحد هؤلاء العفاريت كان قد مد يده داخل أحد الأحواض المفتوحة و"نشلها" منه!!

وظهر لص آخر بدأ في جمع غنيمته، ووضعها في حقيبة أنيقة وفاخرة، تليق بدكتور جامعة على أقل تقدير!!

كان اللص ينظر إلينا شذرًا وهو يرمق محتويات جيوبنا بقرف، ويبدو أنه يشعر بالحسرة والندم لدخوله مكانًا كهذا وتبديد جهده ووقته في سرقة أناس من أمثالنا!!

ومع أنني بعد لم أكن قد صدقت أو استوعبت ما يحدث إلا أنني كنت قد بدأت أغلي بالغضب والغيظ، فما كان في جيبي يقترب من نصف المرتب، وفقدانه بالنسبة لي يعد كارثة تفوق كارثة انفجار المفاعل الروسي"تشير نوبل"، وشيء لا تُجدي معه كلمات الرثاء والصعبنة!!

وما زاد وغطى أن أعرب اللص فجأة عن تغيير في الخطط، وقرر أن يحتفظ بأحدنا كرهينة حتى يفر!!

في البداية تصورت أنه سيأخذ أحد الزملاء الأعزاء مما شرح صدري جدًا، وجعلني أتفاءل بهذه الخطوة الرائعة، وأنسى كارثة المرتب، بل كاد الحماس يأخذني وأرشح له بنفسي مجموعة منهم!

لكنه مد يده وحاول أخذ أحد الأولاد، والذي يبدو أنه لم يكن يمانع على الإطلاق، فحياة اللصوص تبدو أكثر إثارة وغنى من حياة المدرسة بكل تأكيد!

كان لابد أن أتصرف!!

في حركة سريعة خرقاء لا توازن فيها ولا تمت للرشاقة بصلة، ألقيت بجسدي على اللص .. واللي يحصل يحصل!!!

وكانت النتيجة المتوقعة أن أبعد نفسه برشاقة عن مسار سقوطي، وارتطامي المؤلم بالأرض، وظهور ورم سريع جدًا في مقدمة رأسي، مع منشار من الألم أخذ يفتت رأسي بكل همة ونشاط!!!

ليس هذا فحسب، بل وكان القرار الحاسم أنني أصلح مَن يلعب دور "الرهينة" في فيلم الأكشن هذا!!

طبعا شعرتُ بالرعب، لكن جزء من نفسي كان راضيًا أن تلاميذي في أمان، فهم رغم كل مساوئهم لا يستحقون مثل هذه النهاية !!

كان اللصان يقوداني خارجًا وسط أصوات كثيرة مختلطة لابد أنها دموع الفرحة للتخلص مني!ـ وأنا أحاول جاهدًا أن أتخيل الخطوة التالية!!

لم أكن حزينًا على شيء، فأبي رحمه الله سبحانه وتعالى توفي وهو راض عني، وأمي لا تحمل لي ضغينة، ودفتر تحضيري كامل حتى آخر حصة!

إنها الجنة إذن!

كما أنني في مهمة عمل، وبتكليف من كبير المدرسـة، أي أنني لو مت فسوف أكون شهيدًا!، وهذا هو الحل الوحيد لكي أجد مهربًا وفكاكًا من كل ذنوبي التي مثل زبد البحر!

فجأة وجدتُ قبضة اللص تخف عن عنقي، ومسدسه يتزاح عن رأسي، وأصوات كثيرة وتجمهر و" لـو عـايز نـذبح .. نذبح".. يا ولاد الـــ ...!!

معقول !!

دونًا عن سبعين مليونًا من البشر من تعداد مصر لا يحـدث هذا المقلب إلا معي!!!

وأنا قد ابتلعتُ الطعم كأي .. سمكة جائعة!!

شعرتُ بالغيظ وبالحنق، لم أجد في الأمر أي دعابة، ولكن حرق دم ورعبًا واستخفافًا لا مبرر له على الإطلاق!

فجأة عاد أحد الأولاد من الداخل وهو يجـري ويـصرخ: "السمكة اتحركت من مكانها .. والله العظيم ... اتحركت"!!

وكانت إشارة البدء للجميع ــ الذين يعرفون ويفهمـون والذين لا يعرفون ولا يفهمون! ــ للهرولة والصراخ والجري في كل مكان!

أسرعت للداخل، كانت الأعمدة التي تُثبّت السمكة المحنطة في وضعها قد سقطت، والسمكة الضخمة ملقاة على الأرض،

مما أوحى لتلميذي النجيب أنها استيقظت وتبحث عن وجبة الطعام القادمة!!!

وأقسمت أن تكون هذه آخر مرة أدخل فيها برجلي وكامل إرادتي الحرة "متحف الأسماك"، ولو أردت أن أتفسح في المرة القادمة فسوف أبتعد عن عالم السمك والبلطي والتحنيط، ربما سأدخل "متحف الجمبري"!!!

مسألة مبدأ!

وجاء مدرس جديد إلى المدرسة، وكان لابد أن أترك أحد فصولي له، بأمر الناظر، والموجه، والمدرس الأول، وأخبرت الأولاد بذلك، وأنا حزين، فرغم كل شيء، بيننا أيام ومواقف وحكايات وضحك ودموع، ولم أفكر قبل هذه اللحظة في أن أتركهم هكذا فجأة.

والأولاد ثاروا، فقد تعودوا عليّ كذلك، وحفظوا أسلوبي، وألِفوني، وأصبح عسيراً عليهم التضحية بكل ذلك، والبدء مع مدرس آخر جديد، ولكن ما باليد حيلة، وقد نزل القضاء!

ومن الحصة أخرجوني في صباح اليوم التالي، فالناظر يريدني، ونزلت لمقابلته، وكان المدرس الجديد هناك وعلى وجهه علامات ضيق، والناظر يتحدث إليّ:

- "تلامذة فصلك القديم يا أستاذ راحوا فين؟"

- "مش واحد بالي يا حضرة الناظر.. راحوا فين ازاي يعني؟"

- "مفيش ولا واحد منهم في الفصل!"

- "يعني اتخطفوا؟"

- "لا، الظاهر إنهم عاملين إضراب عشان إنت سبتهم"

وكنت أشعر بسعادة، ولكني أجاهد لإخفائها، إذ لم أكن أعرف أني هكذا غال عند الأولاد، وأتظاهر بالاندهاش، وأنا أقلب يدي، وأقول لحضرة الناظر:

- "وأنا أقدر أعمل إيه يا حضرة الناظر؟"

- "تكلمهم وتعقلهم"

- "أنا رأيي إن حضرتك اللي تتكلم معاهم.. إنت كبيرنا وأكيد هيسمعوا حضرتك.."

ويبدو أن الكلام جاء على هواه، إذ طلب مني أن أبعث لهم على الأقل مرسالاً، يخبرهم بضرورة المجيء للمدرسة غداً، وهو سيتولى هذا الموضوع، فوعدته.

وجاءوا في الغد، ودخل إليهم الناظر، وتحدث معهم بود:

- "خير يا حبايبي ماجيتوش امبارح ليه كلكم؟"

- "احتجاج على التغيير اللي حصل في المدرسين يا أستاذ"

- "يا ولاد كل المدرسين زي بعض"

- "ما دام الحكاية كده يبقى رجعوا لنا أستاذنا"

- "وإذا ما رجعناهوش يعني هتعملوا إيه؟"

- "هنفضل نغيب.. ونقول لأهالينا إن الناظر هو السبب"

وبدأ الناظر يفكر من جديد، إذ كان بينه وبين المشاكل عدم استلطاف قديم، وما الحل؟ وما العمل؟ ونظر نحوي مستنجداً، فهززت رأسي بمعنى لا أعرف.

وحاول معهم من جديد، بنظام الإغراءات والرشا هذه المرة، لدرجة أنه عرض عليهم، حصة "ألعاب" إضافية، كل أسبوع، وعلى مسئوليته الخاصة، إذا هم وافقوا على هذا التبديل، ولكن أحد الطلاب "اللمضين"، وقف وقال بكبرياء:

- "المسألة مسألة مبدأ يا أستاذ"

والناظر يكاد يفرقع من الغيظ، وتارة ينظر نحوهم في غل وحنق، وتارة نحوي، وهو يسألني هامساً:

- "مبدأ؟.. العيال اتعلموا الكلام الكبير ده منين يا أستاذ؟"

فأكتم ضحكتي بصعوبة، وأرد عليه:

- "أكيد من التليفزيون يا حضرة الناظر"

ولم ييأس، وجعل يلف ويدور، ويشرق ويغرب، والأولاد كأنما تلبسهم جميعاً شيطان، أو مارد من الجن الأحمر، يتكلمون بثقة وإقناع، وإصرار غير عادي، ويحاورون ويداورون، ولا يملون، وهم لأول مرة في حياتهم، يتفقون على شيء محدد، ونفسي تتفتح من ناحيتهم أكثر، إذ هم رغم ظروفهم التعليمية

المتعثرة، يتمتعون بالوفاء، وبطاقة غير عادية من الحب والإخلاص.

ويئس الناظر في النهاية، و لم يجد بداً، من الموافقة على طلبهم، فقال لهم:

- "خلاص يا ملاعين.. هيرجع لكم أستاذكم.. بس على الله يتمر فيكم.. وترفعوا راسنا السنة دي"

ونظر نحوي، نفس النظرة التي تقطر شرراً، وقال:

- "ونبقي نشوف صرفة للمدرس الجديد"

والحق أني فرحت، بل طرتُ من الفرح، وقررت أن أبدأ معهم فوراً، فقد اشتقت إليهم كثيراً، وأخرجت الطباشير، وكتبت على السبورة "نصوص"، والناظر يرمقني بغيظ، وهو يهم بالخروج، ولكنه بعد أن فتح الباب، عاد وأغلقه ثانية، ووجدته فجأة يلتفت، ويسأل الأولاد:

- "أنا عايز أعرف حاجة واحدة بس .. إنتم ليه متمسكين بأستاذكم للدرجة دي؟؟"

فقام ولد عبقري من جهابذة الفصل، وقال بسرعة وبكل ثقة:

- "أصل احنا بصراحة.. ما بنفهمش "جغرافيا" من حد غيره يا أستاذ".

البيه الحمار!

أحضِر قُمقماً، محبوساً فيه "شلة" عفاريت، منذ عهد سيدنا "سليمان"، وافتح هذا القمقم فجأة، وتأمل ما يحدث، صدقني، لن يكون المنظر أكثر إرعاباً وفوضى، من منظر التلاميذ الشياطين وقت أن يضرب جرس الخروج، وتراهم قد اندفعوا من كل صوب، وإلى كل صوب أيضاً، يصيحون، ويهللون، ويشتمون، ويسقطون، ويقومون ثانية في ثوان، ليستأنفوا العراك، والمشاغبة، والاستمتاع بتكسير عظام بعضهم البعض، في سادية غريبة، لا يمكنك أن تصدق أنها تصدر عن مجرد طفل!

فلحظة خروجهم من المدرسة، هي أسعد لحظة في حياتهم، وهي اللحظة التي يظلون يحلمون بها كل حصة، ومع كل دقة جرس، ويتخيلون سحرها وروعتها، ويتحملون من أجلها وفي سبيلها سماجة المواد وثقل دم المدرسين، طوال اليوم!!

ومع ذلك، فبعد ثوان، وبعد انصراف آخر تلميذ، تجد الهدوء قد خيّم، والصمت قد أعلن ملكوته على الفصول والطرقات و"الحوش" وباقي الحجرات، وتتساءل بينك وبين نفسك: أنى يحيي الله هذه المدرسة بعد موتها؟

ويبدأ فصل جديد من معاناتك الخاصة، فأمامك ما تـــزال سكة سفر!

وعندما وصلتُ لموقف السيارات اليوم، كانـــت مفاجـــأة قاسية في انتظاري، إذ لم يكن هنـــاك أي أثر، ولا بارقـــة، ولا لمحـــة لجنس العربـــات، لا "كـــارّو"، ولا "ملاكـــــي"، لا ذاهبـــة، ولا آتية، لا صغيرة، ولا كبيرة، ولا تليفون بالبلـــدة كلها تتصل منه، وتطلب بوليس النجدة أو المطـــافئ أو حـــتى الإسعاف!

ولا تجد أمامك في النهاية، إلا التـــزام الـــصمت البليـــغ، والوقوف إلى جانب الطريق في انتظار الفرج، ولكن الانتظـــار يطول، وعقارب الساعة تلتهم الثواني في شراهة، ولا يظهر في الأفق أي شيء، ولا يبدو أنه سيظهر خلال الألف عام القادمة على الأقل!

فأضطر -على مضض- لسؤال أحد المارين بي، عن تفـــسير لهذا الموقف، إذ ربما نقلوا "الموقف" بالليل والنـــاس نيـــام، أو انفجرت العربات كلها، احتجاجاً على تشغيلها كـــل هـــذا العمر، وقد انتهت فترة صلاحيتها، من عشرين سنة على الأقل، أو تم "تكهين" جميع السيارات بسائقيها، وإعـــادة تـــدويرها واستعمالها في صناعة الأسمدة الزراعية!!

ولكن الرجل أخبرني، وهو يقاوم النعاس بصعوبة، ويتثاءب بين كل كلمة وأختها، أن العربات جميعها خرجت "بمنتهى الحرية"، وبدون سحب رخصها، أو تهديد سائقيها، بالسحل والضرب والحرمان من الماء والهواء، لتسير في موكب أحد الوزراء، الذي يزور المحافظة في هذا اليوم بالذات، لافتتاح كشك سجائر فاخر، مصمم على أحدث الأطرزة الفنية والتكنولوجية الحديثة، ويعد الأول من نوعه في العالم بأسره، من حيث أسلوب إدارته وروعة بنائه!!!، ولن تعود طبعاً إلا بعد انتهاء الزيارة ، و"حلّني"!

وكانت ورطة، إذ لا حل أمامي الآن، إلا النوم بجانب أي حائط، حتى مساء المساء، عندما تشتاق إحدى العربات للعودة للبلدة، أو أن أبدأ السير في همة ونشاط، بلا تضييع لحظة واحدة حتى القرية التالية، التي ربما يكون بها إحدى العربات التي هربت من هذه "التشريفة" الإجبارية!

والقرية التالية ليست بعيدة جداً، إذ هي مجرد ثلاثة كيلو مترات لا أكثر، وأنت مازلت في عز الشباب!

وأبدأ السير، مضطراً وحانقاً، وأنا أكاد أسقط إعياءً، فبعد يوم دراسي حافل، وست حصص دسمة، ومشاغبة أو اثنتين مع الطلاب، لا يكون المشي –خطوتين- محبباً إلى النفس وهيناً إلى

هذه الدرجة، فما بالك بثلاثة كيلو مترات، وأنت على فيض الكريم، إذ ربما توجد عربة في القرية المجاورة، أو القرى كلها في الهم سواء، وما دام الوزير هنا، فلا مواصلات ولا طعام، ولا شراب، ولا تنفس حتى، والكل -شئت أم أبيت- في خدمة جنابه!!

والمشي متعب، والعرق لا يطاق، والشمس قد استدارت نحوي بعينيها الحمراوين، وزوت ما بين حاجبيها، وأصبح لا هم لها ولا شغلة ولا مشغلة إلا مراقبتي عن كثب، وصب النيران الحامية على ظهري وقفاي!

وبينما أمر على أحد الحقول، يلمحني أحد تلامذتي المشاغبين، ويبدو -رغم غباوته التقليدية- أنه فهم ما يحدث،

وبشهامة لا شك فيها، ينادي عليّ من بعيد، فألتفتُ إليه مندهشاً، فإذا به يترك عمله فوراً، وينادي والده، ويشير ناحيتي قليلاً، ثم ينطلق إلى مكان قريب، ويعود وهو يمتطي، كالفارس المغوار، والأسد الجبار -ولا مؤاخذة- حماراً، ماركة أربعة حافر، من النوع "الحصاوي" الأصيل، غالي السعر كذلك، ويتقدم مني وهو يقول:

- "اتفضل يا أستاذ.. أوصلك للبلد اللي جنبنا"

فأبتسمُ في إحراج، وأشكره على عرضه الكريم، وأحاول التملص منه "بصنعة لطافة"، ولكنه يلح عليّ، ويصر، فأنا

صعبان جداً عليه، وتلح عليّ كذلك، الآلام الشنيعة التي بدأت تدب في باطن قدمي اليسرى، والعرق الغزير، والدوخة الـــتي بدأت من حرارة الشمس تهاجمني.

ولا أجـــد بـــداً في النهاية من قبول "عزومتـــه" الكريمـــة، والركوب خلفه على "البيه الحمار"، وأنا لم أركب حمـــاراً في حياتي، ليس ترفعاً لا سمح الله، فأنا ليس من طبعي التكبر، ولا قلة حمير طبعاً، فليس أكثر من الحمير في البلد!!

ولكن الظروف فقط، هي التي لم تمكني مـــن نـــوال هـــذا الشرف العظيم!، وأنا -بيني وبينكم- طوال عمري أخاف من أمثال هذه "الركوبات" إذ أن حوادثها كثيرة ولا أمان لها!

وبين لحظة وأخرى، يفلت منك الزمام، وتجد نفـــسك في المستشفى، بلا حول ولا قوة!

والحمار يبدو متهوراً، يسير على هـــواه، "يتـــنطط" بنـــا، ويتأرجح، ويسرع تارة، وتارة يتبختر على مهل، ولكنه رغـــم كل شيء، أفضل من السير على الأقدام.

والرحلة تتقدم لا شك، وتحقق نتائج رائعة، والأمور حتمـــاً سوف تتحسن، بين لحظة وأخري، وأخيراً تلوح معالم البلـــدة التي نقصدها من بعيد، وعلى حـــدودها كانـــت في انتظارنـــا

مفاجأة أخرى، إذ رجال أمن منتشرون تحت كل حجـــر، وفي كل زاوية، من كل شكل ولون، وعربات أمـــن وإســـعاف، وكلاب بوليسية فاخرة، تنظر نحوك بكبرياء وتحد، ولا أثر طبعاً لأي عربة، يمكن أن تُستخدم لخروجك إلى ســـطح العـــالم!!، وكله ببركة زيارة السيد الوزير!!

واقتربَ ضابط شاب متبختر مني، يبدو حديث التخــــرج، ولكن زيه العسكري طبعاً، يجعله ولا "روميل" في زمانه، وهو ينظر لي بتعالٍ، ويضع يده على كتفي، كأني حرامي ممـــسوك متلبساً ويسألني بعظمة:

- "اسمك إيه يا كابتن؟"

- "أنا مش كابتن.. يا كابتن.. أنا مدرس.. بخرّج من تحت إيدي دكاترة ومهندسين وظباط.. زيك كده"

- "وأعرف منين إنك مدرس؟ معاك بطاقة؟"

- "اسأل الحمار"

- "نعم؟"

- الحمار اللي أنا راكبه ده.. واخدني من قُـــرْب المدرســـة اللي بشتغل فيها"

- "حضرتك بتهزر معايا؟"

- "حاشا لله.. وهي العين تعلا على الحاجب.. والدم يبقى ميـــة.. ده إنتم الكل في الكل.. واحنا عايشين بحسكم"

- "طب طلع بطاقتك"

وكان موقفاً رائعاً، أمام تلميذي، وهو يرى أستاذه الـــذي يعلمه احترام كرامة الإنسان، وهو يخضع لهذا الامتهان، مـــن الضابط وليس من اللص، من الحامي وليس من المعتـــدي، وفي حين أكرمني الحمار، وحملني على ظهره بدون سابق معرفة، ولا منفعة شخصية، ولم يشك، ويطلب مني البطاقة ليتأكد، أهانني الضابط، وطلب من أحد العساكر أن يفتشني أيضاً، إذ ربما في دفتر التحضير مطواة، وفي وسط الكتب قنبلة، وحبر القلـــم لا شك سم زعاف، ودفتر درجات الطلاب أرقام تليفونات باقي أفراد العصابة، الذين سيشتركون معي، في نسف الهرم الأكـــبر وأبي الهول في ضربة واحدة، ولكنه مكتوب بالشفرة السرية!!

ولما يأس مني، ونال كفايته، لم يجد أمامه بداً مـــن تركـــي وشأني، وهو ما يزال يرمقني بنظراتـــه البوليـــسية الخطـــيرة، وتلميذي الصغير، ينظر نحوه في غل وغيظ، والحمـــار العزيـــز ينهق بشدة، فقد رأى في تلك اللحظة لا شك شيطاناً رجيماً!

وأخيراً، أخيراً، أرى عربة تأتي من بعيد، فأهلـــل وأفـــرح، وأشير لها وأسأل السائق:

- "هل أنت ذاهب إلى بلقاس؟"

فيجيبني أن نعم، فأشكر تلميذي المخلص، الذي لم ينصرف إلا بعد أن ركبت العربة، وألوح بالتحية للحمار البطل الذي أصبح منذ اليوم صديقي وصاحبي.

وما إن نترك البلدة خلفنا، حتى أجد فجأة العربة تتأرجح بنا وترتج، ثم أسمع صوتاً عنيفاً كالقنبلة، ويفقد السائق بين لحظة وأخرى السيطرة على عجلة القيادة، ونجد أننا بكل فخر "نلبس" في شجرة بديعة المنظر، يبدو أنها مزروعة في هذا المكان خصيصاً من أجلنا، وأغيب عن الوعي وأنا أشعر بألم في كل جزء من جسدي!

وعندما أفقتُ بعد ذلك في المستشفى، كان أول ما فعلته، أن أرسلت برقية اعتذار رسمية لتلميذي الشهم، ومنه إلى صديقي الحمار، بالأصالة عن نفسي، أطيب بها خاطره وأطلب منه السماح والعفو والمغفرة، لسابق شكي فيه، وخوفي من الركوب على ظهره العزيز!!!

التلميذ دائماً على حق!

وحادثة أخرى فريدة من نوعها، إذ أحد الطلبة عديمي التهذيب، والجدير حتماً بالانضمام إلى إصلاحية الأحداث، واحتلال المقاعد الأولى فيها، أوقفهُ أستاذه، لأنه لم يحضر لا كراسة ولا كتاباً، وكأنه ذاهب إلى السيرك لا إلى المدرسة، وما كاد يقترب من التلميذ الشرس، ليسأله عن سبب هذا الانضباط الرائع، والطاعة العمياء، والحرص المبالغ فيه على العلم والتعلم، حتى فوجئ بالتلميذ المحترم، يجذبه من كرافتته على حين غرة، ويقول له بلهجة أعتى المجرمين:

- "أنا ماحدش يحاسبني على تصرفاتي"

كأنه "جنكيز خان" نفسه، أو "هولاكو"، أو "فريد شوقي" على أقل تقدير، والمدرس كان من النوع الغلبان المسالم الذي ألجمته الصدمة، ولم يقم بشنق التلميذ فوراً وسط حوش المدرسة، بعد جلده مائة جلدة على الأقل، كتعبير رقيق عن رأيه الشخصي في تصرفه المهذب!

ولكن والحق يقال، فالناظر لم يتهاون في مثل هذا الأمر الخطير، ولم يترك الحادثة تمضي بدون عقاب رادع، ولا قرارات حاسمة، تحفر اسمه بمداد من ذهب، في كتب التاريخ والجغرافيا

كذلك، فالناظر المحترم بعد هذا التعدي الخطير، ولمنع تكـــرار هذه المهزلة المؤلمة، أَمَر جميـــع المدرســين... بعـــدم ارتـــداء "الكرافتات" بعد اليوم!!

والتلميذة الأكثر تهذيباً، التي أوقفتها أستاذتها، لأنها لا تكف عن الكلام لحظة واحدة، منذ بداية الحصة وحـــتى ختامهـــا، كواجب مقدس، ربما يحاسبها ضميرها عليه، لو قصرت فيه، أو أهملته ثانية واحدة فقط، فوقفت التلميذة مشكورة، وقبـــل أن تفتح الأستاذة فمها بكلمة واحدة، بادرتها التلميذة بكـــل أدب ورقي وكبرياء يليق بالأميرات:

- "أرجوكِ.. إنتي ملكيش كلام عليّ!!"

والحق مع الطالبة بالطبع، إذ الأستاذة ما هـــي إلا خادمـــة لجنابها، أو على أقل تقدير، موظفة عنـــد الـــسيد والـــدها في الأبعدية!!

وظاهرة التلميذ المعجزة، الذي تصطدم به في كل فـــصل، ويقول لك:

- "لو ضربتني.. هقدم شكوى للوزير.. الضرب ممنوع يـــا أستاذ"

وكأن الوزير -أعزه الله- منع الضرب، للمحافظـــة علـــى مشاعر "أسيادنا" الطلاب الأعزاء، ولكنـــه نـــسي في غمـــرة

انفعاله، أن يمنع قلة أدب الطلاب، وتبجحهم، وتجاوزاتهم، من أجل المحافظة على مشاعر المدرسين!!

والسهو وارد في مثل هذه الأمور بالطبع، والله يكـون في العون، فالمشاغل لا تنتهي، وهذه الهنات التافهة، لا يمكـن أن تؤثر أبداً في بناء التربية والتعليم الشامخ!!

وأصبحت العلاقة بين الطالب والأستاذ، كعلاقـة القـط والفأر، ولكن الفأر في هذه الأيام، هو الذي يـضايق القـط، ويتصيد له الأخطاء!!

وولي الأمر الذي فجأة، وبقـدرة قـادر، وفي أي لحظـة، أصبحتَ تجده فوق رأسك في الحصة، ومعه الناظر والوكيـل والمدرس الأول والعامل وأمة لا إله إلا الله، وولد "مفعـوص" متشبث بيده، ومختف خلف ظهره منك، كأنـك "دراكـولا" الموشك فوراً على التهامه، يشير ناحيتك في حذر، ويقول لأبيه في غل عظيم:

- "هو ده"

ويكون المقصود بـ"ده" حضرتك طبعاً، ولـيس صـديقه الذي يلعب معه في الشارع، وليس لصاً وجدوه يومـاً فـوق سطح بيتهم يسرق الغسيل. ويعلو فجأة صـوت ولي الأمـر، ويتدخل الناظر، ويبكي الولد ويتمسكن، ويتكلم حتى العامل،

والكل على أعصابه، يناقش ويدافع ويوضح ويكر ويفر، لتكتشف في النهاية، أن كل هذه الجلبة، لأنك طلبت -بكل أدب طبعاً- من الولد "المفعوص" منذ أسبوع مضى أو شهر، أن يمسح السبورة، فهذه طبعاً قلة ذوق منك، وقسوة مبالغ فيها، بل والأدهى أنها صورة بشعة من صور عمالة الأطفال في مصر!

وتجد نفسك بين سين وسين، ولا جيم واحدة مسموح لك أن تنطقها، أو حتى تفكر في ذلك!

فالجرم شنيع، والعذر مرفوض، والتبرير لا محل له من الإعراب!

وأخذ المدرسون -فيما بينهم- يفضفضون قليلاً عما يجدونه من إهانة، ونكران للجميل، وجحود مستمر من الجميع، الوزارة والتلاميذ والتوجيه وأولياء الأمور، ويتحسرون على الزمن الجميل الذي راح، يوم كان للمدرس سعر وقيمة!

ويرددون: "الزبون والتلميذ دائماً على حق".. و.. "ابعد عن التلميذ وغني له".. و.. "اللهم اكفني شر تلاميذي.. أما أعدائي فأنا كفيل بهم".. وكذلك.. "أعلمه الرماية كل يوم.. فلما اشتد ساعده رماني!"

وتجد نفسك فجأة تتذكر بمرارة قول "شوقي":

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

وتضحك من قلبك، وتغوص أكثر وأكثر في مرارتك، وأنت تتأمل أحوالك ظهراً لبطن، ومن فوق لتحت، ومن اليمين والشمال، فلا تجد إلا كل ما يثير الحزن، ويوجع القلب، ويدوّخ الفكر، ويورث الهم، وتعترف بينك وبين نفسك أن الزمن الحلو -مثل كل الأشياء الحلوة في حياتنا- فعلاً لن يعود، وأن الأصدق من بيت "شوقي" السابق، قول الشاعر "الحلمنتيشي" معارضاً أمير الشعراء:

قم للمعلم وفه التلطيشا

كاد المعلم أن يكون شاويشا

وتتذكر بالمرة، أبيات الشاعر الكبير "إبراهيم طوقان":

شوقي يقول وما درى بمصيبتي ... قم للمعلم وفه التبجيلا
اقعد فديتك لا يكون مبجلاً ... من كان للنشء الصغار خليلا
لو جرّب التعليم شوقي ساعة ... لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حسب المعلم غمة وكآبة ... مرأى الدفاتر بكرة وأصيلا
مائة على مائة إذا هي صححت ... وجد العمى نحو العيون سبيلا
يا من تريد الانتحار وجدته ... إن المعلم لا يعيش طويلا

نفر زيادة

عندما دخلت الفصل اليوم، لم أجد إلا عدداً قليلاً جداً من الطلاب، يكاد يعد على أصابع اليدين، متناثرين هنا وهنـــاك، والحق أني فرحت، فهذا يعني أني أصبحت -مـــن كثـــرة مـــا كابدت وعانيت!- رجلاً صالحاً، قريباً من الله، وأن دعواتي - ليل نهار- عليهم قد جاءت بنتيجة، و لم أعد أشك أن الله قـــد أرسل عليهم الملائكة بحجارة من سجيل، أو أنه سبحانه قد ملأ قلوبهم بالرعب والفزع، فباتوا في ديارهم جاثمين!!

وأحسست بالنشاط يدب في جسدي فجأة، وبالحيوية تعود لأطرافي، وأنا أنظر إليهم في استخفاف، إذ السيطرة عليهم الآن ستكون هينة، والكلمة ستقال مرة واحدة، فتُنفَّذ وتُؤخذ مأخذ الجد، خاصة أن أباطرة الشر جميعهم غائبون، وتوكلت على الله بعد أن حمدت نعمته عليَّ، ورجوته أن يـــديمها ويبقيهـــا، ثم أمسكت بإصبع "الطباشير"، وهممت بالبدء في درسي، ولكـــنّ فضولاً قوياً عاد يتملكني، ويجعلني أتمهل قليلاً، ثم ألتفـــتُ إلى أحد الطلاب، وأسأله:

- "أمال فين بقية الفصل النهارده؟"

فنظر حوله في ذكاء، بعد أن ضيّق عينيـــه، ورســـم الجـــد والخطورة على وجهه، ثم قال في تأكيد وثقة، معجبـــاً بقـــوة ملاحظته:

- "غايبين يا أستاذ"

فرمقته في غل، وقلت له:

- "ياه.. والله.. طيب كويس إنك نبهتني.."

ثم بغيظ أكثر:

- "أنا قصدي غايبين ليه يا بني آدم؟"

- "أصل عندهم جمع.."

- "جمع إيه.. درس رياضيات يعني؟"

- "لا يا أستاذ.. جمع قطن.."

فتوقفتُ عن الكتابة، ثم التفتُ إليه، وأنا أقول في دهشة:

- "قصدك إنهم في الغيط دلوقتي بيشتغلوا"

- "تمام يا أستاذ"

- "وبيفضلوا كام يوم؟"

- "حسب الظروف يا أستاذ"

- "والمدرسة يا ابني.. والعلم والمستقبل.. إنت بتتكلم ازاي؟"

فهز كتفيه في لامبالاة، ثم عاد لمحاولاته المستميتة لفقء عين زميله الذي يجاوره على سبيل التسلية!

وأنا قد سرحت بعيداً، لأراهم، بأجسادهم الهزيلة، وثيابهم البسيطة، من "النجمة" يستيقظون، وهم قد حملوا على أكتافهم الضامرة مسئولية البحث عن الرزق، تحت الشمس الحامية، وفي أسوأ الظروف، ربما حتى بدون أن يأكلوا ولا قمة واحدة، وحُرموا في نفس الوقت من حقهم الطبيعي في الحياة وفي التعليم!

وتنهدت، وعدت أمسك بإصبع "الطباشير" وأحاول الكتابة من جديد، إلا أنني لم أستطع، ووجدت نفسي فجأة، أترك كل شيء، وأهبط إلى الناظر العزيز، وأطرح عليه المشكلة:

- "يا حضرة الناظر الموضوع ده خطير"

- "طبعاً يا أستاذ بس مفيش في إيدينا حل"

و لم أجد ما أقول، فعدت إلى الفصل محبطاً، وأنا أشعر بغصة مؤلمة في حلقي، لأجد تلامذتي ينظرون نحوي باستغراب، فتنبهت واستخلصت نفسي مما أنا فيه، وكتبت على السبورة "التعليم كالماء والهواء"، ووجدتني أندفع فجأة في محاضرة حامية عن التعليم وفائدته وأهميته، وعن الكرامة التي يسبغها على الإنسان.

وأخذتني الجلالة، فلم أنم يومها عندما عدت لمنزلي، ومكثت طوال الليل، أكتب مقالة ساخنة تتناول كل الأفكار والخواطر

التي دارت في ذهني، وأحلل وأفند وأقترح وأناقش، وفي صباح اليوم التالي، كان الموعد مع إذاعة الصباح، أمسكت "الميكروفون"، وصُلت وجُلت، حتى أخذت الحماسة جميع من شهد الواقعة، واندفعوا في تصفيق حار لا ينقطع.

وليس هذا فحسب، وإنما أرسلت المقالة إلى إحدى الصحف الإقليمية، علّها تظفر بالنشر -ولو على سبيل الخطأ!- وتوصل صوتي إلى المسئولين، كما قمت بإصدار مجلة حائط، دعمتُها بصور ومقالات عن عمالة الأطفال في مصر والعالم وخطر كل ذلك على مستقبل الأمة.

حتى شعرت بالامتلاء، وبأني فعلت الذي أقدر عليه، وأستطيع الآن أن أستريح بعد طول عناء.

ولكنّ ظاهرة الغياب استمرت رغم ذلك، حتى انتهى موسم الجمع، وعاد الفصل لصخبه واكتظاظه من جديد، ولكن هؤلاء الملاعين -صدق أو لا تصدق- كانوا قد أوحشوني جداً، وأوحشتني مصائبهم!

فاستقبلتهم استقبال الأبطال الفاتحين، وقلت لهم ما شاء الله لي أن أقوله، من نصائح وحكم وأبيات شعر، لأنبههم من الغفلة التي تظللهم،وأحاول دفعهم لعدم تكرار هذا الأمر،ولكن أحدهم -وهو مشروع سفاح رائع لا شك في ذلك!- قال لي في حماس:

- "تعرف احنا بناخد يومية كام يا أستاذ؟"

فقلت باستهتار:

- "كام يعني؟"

فرد في ثقة العلماء وزهوهم:

- "٣٠ جنيه في اليوم.. من الساعة ٦ الصبح للساعة ٢ بعد الضهر.."

ففغرتُ فمي في ذهول، وفقدت النطق،وجعلت أحدّق ناحيته في تركيز وإصرار، وأنا أتذكر "يوميتي" في التربية والتعليم المربوطة -بكل فخر- على أربعة جنيهات فقط لا غير! وشحططتي مع الطلاب، وبهدلة المواصلات، والتعب، والتحضير، ودفاتر المكتب، وحضرة الناظر، والموجهين، ثم عدم التقدير في نهاية كل ذلك!

ومكثت فترة غير قليلة، أقلب الأفكار في ذهني، وأحاول أن أفيق من تأثير ما سمعت، حتى يعود لي صفائي الداخلي الذي تلوث الآن للأبد، ثم وجدتني -بلا وعي- أسير نحوه في إصرار، وأميل عليه، وأهمس له في رجاء:

- يا ترى مش محتاجين "نفر" زيادة الموسم الجاي؟"

همس الجنون!

جرس المنبه لا شك هو الذي يضرب إلى جوار أذني اليمنى بهذا الشكل الفظيع الآن، وإلا تكون خلايا مخي -إذن- هي التي تتفجر واحدة وراء الأخرى من جراء الإرهاق والتعب الذي أصبح سمة من سماتي في الفترة الأخيرة!

أقوم من النوم بتكاسل لم أعهده من قبل، وأمد يدي لأغلق المنبه، فأجده -لدهشتي- مغلقاً بالفعل، بل أكثر من هذا.. لا توجد به حجارة من الأساس! فما هذا الذي سمعته إذن؟!

ثانية واحدة، وأسمع صوتاً عالياً ينادي باسمي في إصرار، فأفتح نافذتي مفزوعاً وأنظر من علٍ، فلا أجد أحداً في الشارع في هذا الوقت المبكر من الصباح!

بعد قليل كنت أصنع لنفسي بعض الشاي المر على سبيل الاحتفال ببقائي يوماً آخر على قيد الحياة، دون أن أُجن، أو يغتالني أحد تلاميذي، دون أن أجلس إلى جوار الجامع وأمد يدي، أو أتهم بتفجيرات "شرم الشيخ"، دون أن يرفع عليّ صاحب البيت قضية لزيادة الإيجار، أو لا أجد طبق الفول بالزيت -رفيق الكفاح- وأقراص الطعمية العزيزة!

يدق جرس الباب في إصرار، فأترك ما في يــدي مــسرعاً، وأذهب لأفتح -متوقعاً كارثة أو اثنتين كالعادة- ولكني ثانية لا أجد أحداً على الإطلاق!

أعود للشاي، وأحدق فيه شارداً، ما هذا الذي يحــدث لي مؤخراً؟، الأصوات التي أسمعها باستمرار، المواقف التي أتخيلها، وحالة السرحان وتوهان العقل الغريب التي أصــبحت مثــل جلدي، لا تفارقني لحظة واحدة!

يطول الوقت والشاي لا يريد أن ينتهي، أنظر إليه بإمعــان، وإلى الموقد، لأكتشف فجأة أنني نسيت أن أشعل النار!

....

أدخل الفصل متجهماً وشارداً على غــير عــادتي، أقــف لحظات بدون رغبة أو قدرة على فعل أي شــيء، فيــستغرب التلاميذ، ولكنهم -مع ذلك- ينطلقون في قوة وسعادة وتناغم معدوم:

- "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"

- "شكراً"

والأولى طبعاً رد على: "السلام عليكم" الــتي كــان مــن المفروض أن أتحفهم بها كالعادة، والثانية رد علــى: "اتفــضلوا اقعدوا"!

أُفيق على صوتهم المزعج، لأنتبه إلى أنني لم ألقِ التحية عليهم هذا الصباح، أعاود النظر نحوهم لحظة وأنا أهم أن ألقيها، ثم لا ألبث أن أنسى الأمر برمته فجأة!

أتوجه للسبورة على مهل، وأكتب عنوان الدرس: "الحال"، فأسمع ضجة ولغطاً من كل مكان، ويقوم طالب "مقـــروض" ويقول:

- "بس احنا ماجبناش كتب النحو النهارده يا أستاذ"

فأحتد عليه:

- "وليه بقى إن شاء الله يا سيادة الوزير؟.. اللي ماجـــابش الكتاب يقوم يوقف"

ووقف الفصل بأكمله، وهم ينظرون نحـــوي باســـتغراب، وغضبي يزداد حدة كل لحظة بطريقة لا إرادية، فأبعث بطالب متحمس و"شرّاني" لينتقي لي أكبر عصا خلقها الله!

وعاد الطالب المخلص بالفعل بعد ثوان، كأنما كان يركب "بساط الريح"، وهو يجر -في زهو وخـــيلاء- عـــصا مهولـــة وقبيحة المنظر، لم أرَ لها نظيراً من قبل، أمسكت بها وذهبـــت لأول طالب وأنا أصرخ فيه كأن بي مس جن:

- "قل لي سبب واحد منطقي مايخليكش تجيب الكتاب"

- "سبب بسيط جداً يا أستاذ.. إن احنا علينـــا النـــهارده "تطبيق" مش "نحو".."!

وبُهت، وتلجلجت في الكلام، وعدت أنظر إليـــه ولبـــاقي الطلاب، وأسألهم:

- "صحيح الكلام ده يا ولاد؟"

- "أيوه يا أستاذ"

وأحسست بالإحراج، فأجلستهم جميعاً، وأنا أنظر إلى نقطة ثابتة لا تتغير من السبورة، ثم مشيت نحوها ببطء، ومـــسحت العنوان القديم، وكتبت "تطبيق"!

....

جريت خلف السائق وأنا ألوح له في حماس، بعـــد انتـــهاء اليوم الدراسي الممتع، حتى ينتبه لوجودي، ويوقف الـــسيارة، وبالفعل هداه الله ورآني في مرآته الخلفية، فعاد أدراجـــه وهـــو يصيح في "التبّاع":

- "هات الخمسين صاغ دي يا وله"

وهو يقصدني طبعاً، فالسائقون يتعاملون مع الركاب باعتبار قيمة أجرتهم فحسب، وليس باعتبارهم بشراً من لحـــم ودم لا سمح الله!

كانت المناظر تعبر أمام عيني بسرعة، فلا أستطيع الإمـــساك بأي تفاصيل أو أشكال، يتسلل الهواء لكل روحي فينعـــشني،

ويذكرني بوجودي، تمضي المحطات، ويصعد ركــاب ويــترل آخرون، حتى تتوقف العربة تماماً، وينظر السائق نحوي في ترقب لأنزل، فأهم بالمغادرة، ولكنه يستوقفني بنظرة شرسة، ويمد يده الشبيهة بيد المخبرين ويصيح:

- "الأجرة الأول يا أستاذ"

فأنظر نحوه في دهشة، ثم في إحراج، وأتمتم وأنا أفــتش في جيبي، لأخرج له نقوده:

- "لا مؤاخذة يا أسطى"

ولكني أكتشف أني نسيت المحفظة، فعدت أنظر إليه في هلع وأتمتم:

- "يا أسطى.. أصل.. أنا.."

ولكنه لم يمهلني، إذ خبط باب السيارة في قوة كادت تترعه، وبين يديه وجدت نفسي فجأة، وهو يهم بالفتك بي ويصرخ:

- "أعمل فيكم إيه بس يا ولاد الـــ..؟"

لكن "حلاوة الروح" تدب في جسدي فجأة، فأدفعه عـــني في قوة، وأمد قدمي بشجاعة لم أكن يومـــاً مـــن رعاياهـــا، وأسقطه على الأرض، ثم أسرع بالاختفاء من أمام عينيه قبل أن يلتهمني حياً.... ولكن....

لحظة واحدة، أين أنا؟، المفروض أنه يوجد موقف كبير ومحلات حيث تعودت أن أنزل في مدينة "بلقاس"، ولكن ما أراه عبارة عن أراضٍ زراعية ممتدة على مرمى البصر، أستوقف أحد المارين وأسأله:

- "أين أنا"

- "في قرية ش يا أستاذ.."

وأدرك فجأة الحقيقة المرة، لقد ركبت السيارة الخطأ من شدة توهاني وغياب عقلي!!

....

لم يعد من مفر..

لابد من زيارة الطبيب..

وما أن دخلت عيادته المتكدسة سكانياً، حتى استلمتني أيدي ممرضيه، فهذا يسأل عن الاسم والسن والعنوان، وهذه تمد يديها وابتسامتها لتقبض مني مبلغاً مفزعاً، وهذا يحضر لي كرسياً أنيقاً، وآخر يشدني من يدي ليجلسني عليه!

وبعد عشر سنوات ضوئية تقريباً، أدخلوني لكاهن العلم العظيم في محرابه، كان طيباً وعجوزاً يرتدي نظارة ضخمة كتلسكوب راح ينظر بها نحوي في خبرة، ثم لم يلبث أن قام من

وراء مكتبه وتلقاني بين يديه في حنان وهدوء، أجلسني وقال لي:

- "فيه إيه يا ابني"

- "السرحان يا دكتور.. مابقيتش قادر أركز في أي حاجة.. ولا أي مكان"

- "من إمتى الحالة دي؟"

- "من يوم ما اشتغلت.. بس هي زادت قوي اليومين دول.."

- "إنت شغال إيه"

- "مدرس يا دكتور.. مدرس.."

- "لا حول ولا قوة إلا بالله.. شد حيلك يا ابني"

ومد يده إلى جيبه فوراً، وإذا به يخرج لي قيمة الكشف الذي دفعته، فاعترضت وصحت فيه:

- "إيه ده يا دكتور؟"

- "معلش يا ابني.. ده إنت مدرس!"

ثم أعطاني "لستة" طويلة عريضة، مليئة بالفحوصات والتحاليل اللازمة، أجريتها على مضض، وأنا أتحسس الثقب الهائل الذي صنعته في ميزانيتي! ثم -بعد فترة- عدت إليه..

كان لديه هذه المرة مجموعة كبيرة من زملائه،عرض عليهم الأشعات، والتحاليل، وأخذوا يفحصون كل جسدي باهتمام مبالغ فيه، يتبادلون الكلام بلغة غريبة، يتفقون ويختلفون، وأنـا أحدق فيهم ببلاهة رائعة، ولا أستطيع أن أفهم أي شيء بالطبع، وأخيراً، أخيراً جداً، وجدت نظرات الأسى والحزن ترتسم على وجوههم، وهم بالتأكيد قد توصلوا لسبب علـيّ ودائي، و لم يكن ما توصلوا إليه ساراً فيما يبدو..!

تقدم مني الطبيب الهمام، كان يبدو متردداً، شد على يدي وقال في ألم:

- "معلش يا ابني نصيبك كده"

- "خير يا دكتور"

- "شد حيلك"

- "حاضر حاضر.. هاشد.. ماتقلقش.. بس إيه التشخيص بالظبط؟"

فتردد أكثر، وعاد ينظر نحو زملائه وكأنه يسألهم التأكيد، فهزوا رءوسهم جميعاً بالموافقة، فالتقط نفساً عميقاً كمن يستعد للغوص تحت الماء، ثم نظر نحوي في تركيز وقال في تأكيد وتعاطف:

- "الدكاترة كلهم أجمعوا إن إنت عندك.. تلاميذ في المخ!!"

زمن البلالا!

ظاهرة غريبة جداً لفتت انتباهي وشغلت تفكيري لفترة..

ففي كل مكان يصلح للكتابة بالفصل -السبورة والجدران والمقاعد و"بلاط" الأرضية والسقف!- تجد الأولاد الموهوبين قد كتبوا أسماءهم بالطباشير والقلم الرصاص والجاف والفحم والطوب الأحمر وأقلام "الفلوماستر" والخشب، وهم لم يكتبوا أسماءهم مجردة طبعاً -لا سمح الله- فهذا لا يصح ولا يليق، وهم أهل الفصاحة واللغة!

ولكن بجوار اسم كل واحد منهم تجد "رزمة" من الألقاب والمناصب والنياشين، فهذا هو "الوحش المرعب"، وذاك "اللي كايدهم"، أما هذا فهو "الملك"، وهذا "الكنج"، و"البرنس"، وأيضاً "أبو وديع"!!!

ولم يخلُ الأمر من بضعة أسماء لفتيات كذلك، ولكن ألقابهن كانت مختلفة قليلاً، وتنوعت بين "السُكَّرة"، و"قمر ١٤"، و"اللي فيهم"، وأيضاً "المعلّمة فضة" و"لو راجل اطلع لي بره"!!!

أما عن الأسهم المرشوقة في القلوب الجريحة، والدموع، والأزهار، والقمر والنجوم، وبعض الحيوانات أيضاً، فحدث ولا حرج!!

فهذا قلب اخترقه سهم ويحيط به خمس نجوم وبداخله "محمد وفاطمة + حب للأبد"، وهذا قلب اخترقه سهمان – متبعاً المثل الشعبي المشهور: " ليه ترسم سهم واحد لما ممكن ترسم سهمين؟"– وقد تعانق فيه اسما "حسام ومنال + حب لن يموت"، ثم أيضاً رسم غريب لشجرة ضخمة ولها فروع وعلى كل فرع تجد اسمي "مصطفي وإيناس"!!!!

أما عن مقاطع الأغاني المفضلة لديهم، واهتمامهم بالتراث و"الفلكلور" الشعبي، فعالم آخر، فهناك "عامل م الحبة قبة.. يعني ما كناش أحبة" و"ماتبصليش بعين ردية.. بص للي ادفع فيّ"، و"بعهم.. يشتروك" و"قوم اقف وإنت بتكلمني" و–صدق أو لا تصدق– وجدت إلى جوار اسم أحد جهابذة الفصل على الحائط "أنا من ضيع في الأوهام عمره.. يا سنية"، ولك أن تتخيل طبعاً مقدار حزن ولوعة "سنية" عندما طالعت هذا الاعتراف القاسي من حبيبها "أبو وديع"!!!

وكنت أتعجب وأندهش، وأتحدث إلى نفسي، وأتذكر أيام شبابي!!.. وأعود أنفض رأسي في قوة.. حب للأبد!.. حب لن يموت!.. في هذه السن؟ وأنا الذي لم أعرف كيف أخاطب بنتاً، وأصمد دقيقة واحدة في مواجهة عينيها إلا في "الليسانس"!!

وعندما تحاول أن تُفهم الطلبة الأعزاء، أن الفصل ملك لهم جميعاً،هذا حق، ولكن لا يعني هذا أن يتحول إلى لوحة

إعلانات، وأنه يجب المحافظة عليه أكثر من هذا، من أجلهم هم أيضاً وليس من أجل أي أحد، تجدهم جميعاً منصتين في اهتمام وأدب -أدب القرود لابد!- ومتفاعلين ومتفهمين لدرجة لا تصدق حتى إن الدمعة تكاد تفر من أعينهم!!

ثم بعد لحظات، وبعد أن تتعب من الكلام، ويجف ريقك، وتدير لهم ظهرك، لا تلبث "ربما" -تلك اللعينة- أن تعود لأسوأ من عادتها القديمة!

فالذين تعودوا على الكتابة لم يُشفوا من هذا الداء لمجرد أن سيادتك "قلت بقين فارغين"، أما الذين لم يكونوا يفعلون ذلك من قبل، فقد نبهتم بشطارتك وكلامك الكبير إلى روعة وحلاوة هذا الموضوع!!

ومن جديد يعود "الأسد المرعب" و"الكابتن" و"معبودة الجماهير" و"وردة الحتّة"!!

بل أكثر من هذا، فعلى السبورة في اليوم التالي، وجدت رسماً كاريكاتورياً لمدرس منكوش الشعر ممزق الملابس بلا حذاء، في يده كراسة يرفعها أمام صدره في هلع، ليتقي العديد من السهام التي تتوجه إليه من كل جانب، وعيناه تدوران في محجريهما بجنون وكأنه قد فقد عقله للأبد، ناهيك عن كلب مسعور متحمس متربص في الركن، ينتهز الفرصة المناسبة لكي يمارس حقه الطبيعي، وينقض عليه مستمتعاً بتمزيقه إرباً!!

وكان هذا دليلاً جديداً على حب الأولاد الشديد لي ووقوعهم في غرامي وغرام اللغة العربية!

والأغرب من كل هذا، هو مستوى اللغة الراقية التي يتخاطبون بها فيما بينهم، ويمارسون من خلالها نفوذهم وحياتهم بطريقة تلقائية مدهشة!

ولن أتكلم طبعاً عن "الاصطباحة" و"كبّر دماغك"، و"صباحه قر يا سيدي" فكلها مما عفى عليه الزمن وأصبح ينتمي للعصر الحجري!

ولكن خد عندك: "لو ماسكتش هاشنتحك"، و"الشنتحة" -أعزكم الله- هي الضرب والبهدلة وقلة القيمة!!

وأيضاً: "شريط عقلي سف" أي -أعزكم الله أيضاً- تعب مخي ويحتاج للراحة والهدوء!

كذلك: "كلاب قلبي بتهوهو" وهو تعبير مهذب وجديد للتعبير عن الرغبة المتأججة في خوض قصة غرامية ملتهبة مع إحدى أميرات وملكات جمال المدرسة!

ثم طبعاً لا أستطيع في هذا المجال أن أنسى "البلالا" وهي من الكلمات الموسوعية الشاملة، التي يستعملها الأولاد بمنتهى الراحة وفي مختلف المواقف، وتتشكل دلالتها اللغوية حسب الموقف والظروف، فعند قولهم ساعة الغضب: "إنت جبت لي

البلالا" يكون معناها "إنت جبت لي العصبي"!، وعند قولهم ساعة الانبساط والفرفشة: "ده كان يوم بلالا" يكون معناها "يوماً سعيداً ممتعاً"، وعند قولهم ساعة المزاح: "لا ده إنت بقيت بلالا خالص" يقصدون "الهبل والعته وسوء الفهم"، أما قولهم "كله بيطلع في البلالا" فهو تطوير حديث ومبتكر للعبارة التراثية الشهيرة التي تربت عليها أجيال وقامت حضارات ودول "كله بيطلع في الغسيل"!!!!

وذات يوم أعددت للطلبة امتحاناً شهرياً مفاجئاً، بأمر الناظر والموجه والمدرس الأول، وليس من بنات أفكاري والله، فأنا لو كان الأمر بيدي، لألغيت جميع الامتحانات والحصص والمقررات من بابها، وأعطيت الطلاب العباقرة شهادات "الدكترة" و"الهندزة" -كما ينطقونها!- وهم في بيوتهم وعلى أسرّتهم سعداء وهانئين، ثم أحرقت جميع المدارس فوراً، باعتبارها معامل تفريخ للجهل والتخلف والكوادر الإرهابية والفساد في المجتمع!!

وطبعاً لم يعجبهم لا فكرة الامتحان، ولا كونه مفاجئاً أيضاً!

وبعد قليل، بدأ الهمس يرتفع، والكلام يعلو، والحركة، واستعارة القلم و"الأستيكة" والمسطرة و"البرجل" -في امتحان اللغة العربية لابد من وجود "برجل" كما لابد أنك تعلم!-

وأنا لا أبالي طبعاً، إذ حتى لو فتحوا الكتب وأشرت لهم بنفسي على الدروس المأخوذة منها الأسئلة، بل ووضعت لهم خطوطاً حمراء تحت الإجابات، فسوف يأخذون جميعاً صفراً كبيراً وربما صفرين أو ثلاثة!

ولكن بدأ يلفت انتباهي نوع الحوار نفسه، فأحدهم يقول للثاني وهو في غاية "الانشكاح":

- "باجو إنت تاني" أي: "برضه إنت تاني".

فيرد عليه الآخر في "صهللة":

- "طبعاً.. أصل حشيش فايدة فيّ" أي: "مافيش فايدة فيّ".

ويتدخل آخر -وقد لاحظ إنصاتي لهم- منهياً المناقشة الحميمية بقوله الفصل:

- "خلاص يا إخوانا ماتكبروش الموضوع، ده احنا كلنا هروين مع بعض" أي: "كلنا حلوين مع بعض"!

وأنا أكاد أجن، وأصاب بالفالج، فأنهض منفعلاً، وأغادر الفصل، وأنا أقول لهم في غيظ:

- "بودرة تندم يا جميل" أي: "بكْرَة تندم يا جميل"!!!!

أنا و"جمعة"!

وجاء طالب جديد إلى المدرسة، اسمه: "جمعة"، كان مثل الأكسجين، عديم الطعم، واللون -فلا تستطيع تصنيفه ضمن البيض أو السود، ربما "الكاروه"!- أما الرائحة، فاكتم أنفاسك فوراً، وحدّث عنها ولا حرج!

وكان مثل الأكسجين أيضاً، لا يشتعل -فهو فيما يبدو يسير بالفريون لا الدم مثل بقية خلق الله!- ولكنه مع ذلك، يساعد على الاشتعال!

وقد قَبِلَ -عن اقتدار واستحقاق- دور "شغالات النحل" النشيطة، وراح ينقل -بكل إخلاص وتفان!- الوشايات والفتن والأكاذيب متقنة الصنع، بين الجُميع، ولا أجدع "بصاص" من عسكر "الحاكم بأمره" الذي حرّم أكل الملوخية فيما مضى!

ناهيك عن حجمه الضخم، وغير المبرر بالمرة، حتى كأنك تستضيف أتوبيساً في الفصل، أو كاسحة ألغام تتمتع بصحة جيدة!

وعلى الرغم من قِصَر الفترة الزاهرة التي قضاها بيننا، فقد استطاع أن يسجل باسمه، براءة اختراع نادر المثال، ربما لو أخذ

حقه من الذيوع والانتشار، لأصبح أعجوبة العصر، ومعجزة كل زمان ومكان! فقد تمكن، بفضل عبقريته التي شهد له بها الجميع، وبضربة واحدة، أن يساوي بين جميع المواد الدراسية، بكل ديمقراطية وحنكة ودهاء، فلا فضل لعربي على علوم، ولا لدراسات على رياضيات، وقد خلقهم الله سواسية كأسنان المشط!، وكل ذلك بفضل اختراعه الفذ: "الكراسة متعددة الاستخدامات"!

حيث إن المذكور أعلاه، أسكنه الله فسيح جناته، قد وَفّر ولم يبذر، واقتصد ولم يُسرف، واشترى -أو ربما استلف!- كراسة واحدة فحسب، لجميع المواد!

وفي وقت العربي، تصبح كراسة عربي، وفي وقت العلوم، يقطع الصفحات التي كانت من نصيب طيب الذكر، العربي سابقا، وبقدرة قادر، تصبح كراسة علوم، أما في حصة الرياضيات، فلا عربي ولا علوم بينفعوا وقت الشدة، وتطير عدة صفحات أخرى، ليتصدر درس الرياضيات العزيز صفحات الكراسة العجيبة!

منتهى التفكير الاقتصادي التقدمي، كما تلاحظون!

والحق أنه كان نوعاً عجيباً وفريداً من البشر، فلا ضرب ولا إهانة ولا تسامح ولا نصائح ولا مدرس ولا أخصائي ولا

ناظر، يستطيع أن يؤثر فيه، أو يردعه عن تصرفاته، فسيادته صاحب حق إلهي -من وجهة نظره!- في كل ما يفعل ويتصرف!

وجميعنا على خطأ، حتى وإن كان ما نتهور ونطلبه منه دائماً، مجرد أن يصمت دقيقة واحدة -ولو دقيقة حداداً حتى!- أثناء الحصة، حتى لقد تركنا له -تقديراً لدوره الرائد في المنطقة!- حرية اختيار الحصة، التي يرغب أن يصمت فيها هذه الدقيقة، حتى نستطيع أن نُقسم برءوس أهالينا، وأرواح أمواتنا، أننا شاهدناه -ولو مرة واحدة في العمر- صامتاً ومحترما!

ولكن هيهات، فنحن نحرث في بحر، ونزرع "القلقاس" في أعالي جبال "الهملايا"!

وجاءني الناظر العزيز، ذات يوم، وهو يرسم على وجهه تعبيرات الجد والخطورة، أمسكني من ذراعي، وأخذني في جانب، وأخبرني في همس، وهو يتلفت يمنة ويسرة، بأن هناك تفتيشاً مفاجئاً من قِبَل الوزارة، الأسبوع القادم، يوم الأربعاء، الساعة التاسعة والربع صباحا!

ثم قال في لهجة تحذير:

- "ولازم نوضع حد للطالب إياه، فاهمني؟"

- "وأنا رأيي من رأي سيادتك بالظبط، تحب نتصل بقوات "سوات" الأمريكية؟!"

- "ما أنا عشان كده باكلمك.."

فابتلعت ريقي، وقد بدأت قبيلة فئران شرسة، تمزق صدري بمخالبها الدقيقة، وقلت وأنا أشعر أن فحـــاً إفريقيـــاً فـــاخراً، يُنصب من أجلي:

- "أيوه يا أفندم، بس يعني، ولا مؤاخذة، هو أنا مالي ومال الطالب ده، يا نحلة لا تقرصيني، ولا عايزة منك عسل!"

- "نحلة إيه، وعسل إيه يا أستاذ؟ أنـــا باكلفـــك رسميـــاً بالتصرف مع الولد ده، ووضع حد لتصرفاته، يوم الزيارة على الأقل، وإلا هيفضحنا كلنا، ويحـــولنا للتحقيق!"

وصحت كالملسوع، وأنا لا أصدق ما أسمع:

- "أنا، واسمعني أنا يعني يا أفندم، ما تشوف له مـــصارع، ولا قاتل محترف!"

فحدجني بنظرة صارمة،وهو يقول في حسم:

- "عشان إنت رائد فصلهم، ولاّ نسيت؟؟"

وتذكرت فجأة، أنهم ذات يوم من قديم الأزل، قد اختاروني -رغم أني كنت غائباً!- من خلال انتخابات ديمقراطيـــة -لا تصدقوني!- حرة ونزيهة، لكي أقود الفصل الرائع للعبور مـــن أجل المستقبل!، لفترة ريادة قادمة، مفتوحـــة ودائمـــة، إلى أن

أموت أنا -بعد الشر- أو يموت طلبة الفصل -آمين، آمين، آمين- واحدًا واحدًا!

وأُسقط في يدي، والدائرة تضيق من حول عنقي، ولا ألمح في الأفق أي بارقة أمل!

ونظر نحوي الناظر من جديد، وربت كتفي وقال:

- "احنا مش طماعين، ومش عايزين أكتر من تحييده في اليوم ده، يعني لما المفتش يدخل الفصل، يلاقي معاه كراسته وكتابه وقلمه، ويلاقيه ساكت بس!"

- "بس؟!!.. دي وصفة هايلة.. دي وصفة سهلة.. وازاي بقى إن شاء الله يا فندم؟!، أربطه بسلسلة حديد، ولا أرمي على وشه مية نار؟!، ولا نؤجر له تلات فتوات، يقعدوا جنبه في الفصل؟!"

فقال وهو يعطيني ظهره، ويسارع بالاختفاء:

- "والله مش شغلي، اتصرف، وخلّي بالك، لو فشلت في مهمتك.."

وصمت قليلاً، ليترك الأثر المطلوب في نفسي، ثم استطرد، وهو يهز يديه حول عنقه بعلامة الذبح:

- "إنت حر"

وكنت أنظر نحوه في غل، وأنا أغلي من الغيظ والحنق، وأقول في سري "طيب.. هنشوف!".

وفي اليوم التالي، وفي طابور الصباح، أمسكت الميكروفون، وأعلنت في الإذاعة المدرسية، عن بدأ فعاليات مسابقة اختيار "الطالب المثالي"، وأن إدارة المدرسة تحت القيادة الرشيدة لحضرة الناظر، قد أعدت هذا العام مكافأة سخية، وغير متوقعة بالمرة، للفائز السعيد، لن يعرفها إلا يوم إعلان نتيجة المسابقة!

وتحمس بعض الطلبة، يعدون على عقلات إصبع اليد الواحدة!، أما "جمعة" الهمام، فقد لمحته، يتثاءب في ملل، ويطرقع أصابعه من حين لآخر، ثم يضرب برجله القوية "طوبة" مسالمة بريئة، لا ذنب لها ولا جريرة، إلا أن سوء حظها، جعل مستقرها أمامه مباشرة، لتطير، وتعبر أجواء الفضاء، وتستقر في "ركبة" أحد الطلاب، الذي راح يصرخ ويولول، ويرفع قدمه المصابة في هستيريا، ويتنطط كـ"اللقلق" على قدم واحدة!

وعندما صعدت إلى حصتي، بسملت وحوقلت، وقلت في سري: "اللهم إني أعوذ بك من شر الخبث والخبائث" ثم عقبت: "أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، وشر عباده ومن همزات الشياطين، وأن يحضروا" ثم دخلت الفصل برجلي اليمين!

وناديت "جمعة" وخرجت به من الفصل، وهو يـــرمقني في توجس، ممزوج بعدم اهتمام رائع، ولكني بادرته وقلت له:

- "بقى أنا عندي ليك حتة عرض، مايترفضش خالص"

- "خير يا أستاذ"

- "سمعت عن مسابقة الطالب المثالي النهارده؟"

- "أيوه يا أستاذ ساعة لما هبدت الواد "لطفي" الطوبـــة في قرقوشة رجله"

- "تمام، تمام، إيه رأيك بقى لو بقيت إنت الطالب المثـــالي ده؟"

فنظر نحوي في دهشة، وهو لا يصدق ما يسمع، ولكنه نطق بعد لحظة:

- "الحاجات دي بتاعة العيال "الخنافس" يا أستاذ، لكـــن الرجالة اللي زينا ملهمش في التهريج ده"

فابتلعتُ ريقي وعدت أحاوره:

- "أصلك مش عارف الجايزة اللي الناظر بنفسه وعد بيها الطالب المثالي"

- "هتكون إيه يعني، قلم ولا براية؟، ما أنا هاخـــدها مـــن "الخنفس" اللي هيفوز بيها، بالذوق، بالعافية، هاخدها، من غير وجع قلب وكلام كتير!"

- "لا مش قلم، أنا هاقول لك، بس ده سر بينّا، إنت راجل، وعارف قيمة الأسرار"

- "رقبتي يا أستاذ"

فملت عليه أكثر، وهمست في أذنه:

- "الناظر بيقول إن اللي هيفوز هيدي له أجازة في بيتهم، لحد يوم الامتحانات، مش بس كده، لا، وهتوصل له "التغذية المدرسية" اللي بتاخدوها في الفسحة دي يومياً، ولحد باب البيت!"

ولأول مرة منذ تعرفت على هذا الطالب المعجزة، ألمح بوادر اهتمام بشيء في الكون على وجهه، ويبدو أن العرض كان مغرياً له بالفعل، إذ أنه هكذا سيضمن أن يستريح من "سجننا" التي تضايقه يومياً، لمدة خمس أو ست ساعات!

وعاد ينظر نحوي وهو يقول:

- "وإيه المطلوب مني يعني عشان أكسب؟"

- "وصلنا، بص يا سيدي، المسألة في غاية السهولة، إنت بس يوم الأربع اللي جاي، هتقعد ساكت بجد وبضمير، وهاقول لك على سؤال وإجابته، عشان الزائر لما يجي، أقومك وتجاوب، بس، هي دي كل الشغلانة، إيه رأيك؟"

فهرش في رأسه، وهو يقول:

- "معقول برضه، بس مين يضمن لي الاتفاق ده"

- "حضـــرة الناظـــر بنفسه، أكبـــر راس فـــي المدرسة، وهو اللي باعتني ليك دلوقتي!"

- "ولو إن اللي بتطلبه مني، صعب قوي يا أســـتاذ، إنمـــا حاضر، هاحاول، وربنا يقدرني"

وتركته، وعدت إلى حصتي، وابتسامة خبيثة ترتسم علـــى وجهي!

وجاء اليوم المشهود، حيث فوجئنا -جميعاً- يوم الأربعـــاء، الساعة التاسعة والربع صباحاً، بأن هناك لجنـــة قادمـــة مـــن الوزارة، وعبّر الناظر عن عدم توقعه لذلك، بقوله لهم:

- "شرفتونا طبعاً، بس يعني مش كنت تقولوا لنـــا عـــشان نعمل الواجب، إنما كده هو، فجأة!"

وبدأ الناظر يطوف معهم أنحاء المدرسة، وجميع المدرسين - بالصدفة أيضاً!- كانوا حاضرين في فـــصولهم، مـــع دفـــاتر تحضيرهم ودفاتر الدرجات الممتلئة بدرجات الطلاب المرتفعة، والتي تدل على مدى المجهود الخرافي الذي يبذلـــه المدرســـون العظام، ومدى تمتع الطلاب الأعزاء -فلذات أكبادنا- بعقليات تفوق "نيوتن" و"أينشتين" و"عادل إمام" شخصياً!

ورغم تفاني الجميع في إرضاء اللجنة، وأعضاء اللجنة، ورغم الجاتوه والساقع والملبس -الذي خُصمت أثمانهم من رواتبنا الفاخرة!- فقد وَقَّعَت اللجنة العادلة الشريفة، بعض الجزاءات الصارمة، على بعض من خالفوا القوانين الرشيدة، مخالفات جسيمة، لا يمكن، تحت أي مسمى، أن تغتفر أو ينظر لها بعين الرحمة!

فهذا الأستاذ الذي أخذ ٦٢ يوماً خصماً، قد نسي أن يُرقِّم دفتر درجات طلاب الصف الثالث الإعدادي، صحيح أنه لا أعمال سنة للصف الثالث أصلاً، وأن الموضوع من أوله لآخره، روتين في روتين، وتحصيل حاصل، ولكن النظام نظام، ولابد من ترقيم الدفتر، وإلا اختلت العملية التعليمية في مصر المحروسة بأسرها!

أما هذه الأستاذة المارقة، فقد دخل عليها المفتش المحترم حصتها، ورغم أنها حامل في الشهر الخامس عشر، إلا أن سبورتها منظمة وجميلة، وطلابها مجتهدون، وأدواتهم حاضرة، وكراساتهم "مُعلَّمة" حتى الدرس بعد بعد القادم، إلا أن خطأها الشنيع، كان أن نسيت أن تكتب عدد طلاب الفصل الكلي على السبورة، وعدد الغائبين، وعدد الحاضرين، وهذا مما لن يسمح لطلابها المساكين -الذين قصرت في حقهم أيما تقصير بتهاونها- باستيعاب ولا حرف واحد طبعاً من الدرس الذي

تشرحه!، ولذا فخصم ١٥٠ يوماً من راتبها، يعتبر رادعاً كافياً لكل من تسوّل له نفسه الأمّارة بالسوء، ارتكاب مثـــل هـــذه الكبائر والفواحش التي تستوجب إقامة الحد عليه!

وجاهد الناظر جهاد القديسين، والمسلمين الأوائل، وهـــو يحاول تأخير أعضاء اللجنة قدر استطاعته، قبل أن يسمح لهـــم بدخول فصلي، وهو يتمنى من الله، ويدعو –مخلصاً– في سره، أن تقوم القيامة، أو ينشب زلزال على أقل تقدير، قبل أن يأتي الدور عليَّ!

ولكنهم دخلوا فصلي رغم كل شيء، يتقـــدمهم النـــاظر القلق، يتلفت حوله، بسرعة خمسين مرة في الثانية، وكأنه يتوقع انقضاض صاروخ أرض أرض عليه فجأة، ونسفه ومن معه!

وفزع الناظر، عندما وجد الفصل هادئاً، السبورة منظمـــة، عليها التاريخان، واسم الدرس، ورقم الصفحة، ومُقســـمة إلى ثلاثة أقسام بالعدل، وقد اُتخم كل قسم، بما لذ وطـــاب مـــن المعاني والمفردات ومواطن الجمال وأسئلة التقويم!

وأكثر من هذا، لا يوجد طالب واحد، ليس معه كتاب، أو كراسة غير مصححة، وبدا أنها الجنة، أو أحلام اليقظة، أو أي شيء آخر، غير أن تكون حقيقة واقعة وملموسة!

وفتش الناظر بعينيه، حتى وقفتا عند "جمعة"، كـــان هادئـــاً كملاك انتهى لتوه من التسبيح!، ووديعاً، كأسد انتهى فوراً من التهام فيل!

وأردتُ أن أبهره، فقلت بصوت واضح، سمعه الجميع:

- "قوم اقف يا "جمعة"، وانتقل التختة الرابعة"

ولذهول الناظر، قام "جمعة" في هدوء، وتواضـــع، بـــل - وصدق أو لا تصدق- نطق بكل ذوق ورقة وهو ينتقل بالفعل:

- "حاضر يا أستاذ"

و لم يصدق الناظر هذا المشهد السحري، وجعل ينقل بصره بيني وبينه، يفرك عينيه محاولاً التأكد من قوة إبصاره، ويـــدخل إصبعه مراراً في أذنه، محاولاً الاطمئنان على رهافة سمعه، وهـــو يكاد يخرج عن شعوره، ويتكلم بما يفضحنا جميعا!

و لم أتركه يلتقط أنفاسه، إذ من جديد صحت:

- "هيه يا "جمعة"، بص ع السبورة، وقل لي مفرد "غُصص" إيه؟"

وانطلق "جمعة" كالصاروخ، وهو يردد الإجابة، التي ظللت طوال أسبوع كامل، أُحفّظها له:

- "غُصة يا أستاذ"

وحُن الناظر -الذي لا يعرف هو نفسه معنى كلمة "غُصة"!- ومن شدة فرحته، خرج عن شعوره، وهتف بالطلاب:

- "مش ممكن، إنت بتجاوب كمان، صقفوا له يا ولاد!!"

وارتج الفصل كله، وربما الفصول المجاورة أيضاً، في مشهد فريد لا يتكرر، بصوت التصفيق الحار بأمر حضرة الناظر شخصياً!

وكان الوقت قد تأخر بالفعل، كما أنه لم يكن هناك ما يمكن أن "تتلكك" عليه اللجنة لي، فاكتفت بذلك، وانصرفت غير مأسوف على ذهابها، حزينة، ومكسورة الخاطر، لأنها لم تستطع إحالتي للمفتي بأية تهمة!!

وما كاد الناظر يوصلهم، حتى أسرع يستدعيني، ويسألني:

- "مستحيل، إنت عملت فيه إيه؟"

- "مسألة قدرات يا فندم، قدرات"

- "بس بجد برافو عليك.. ده إنت مصيبة!"

- "شكراً على ذوقك يا فندم، بس الحقيقة هو "جمعة" كان عايز يقابل سيادتك ضروري"

- "ليه بقى إن شاء الله، فيه إيه؟"

فتظاهرت بالبراءة، وأنا أقول في عجب:

- "الله أعلم يا فندم هو واقف بره أهو"

- "طيب يا سيدي، خليه يشرفنا، أما نشوف"

وما أن اختفيت عن ناظره، حتى رسمت على وجهي علامات الثورة، وجعلت أنفخ، وأبرطم، وأضرب كفاً بكف، حتى لقيت "جمعة"، فسألني مترعجاً:

- "مالك يا أستاذ، خير؟"

- "تصور يا "جمعة "، باكلم الناظر، عشان يوفي بوعده ليك، بعد ما عملت المطلوب منك، ويخليك مثالي، ويديك أجازة، رفض، واتخانق معايا، ولما ماسكتش، وقلت لا يا فندم،ماينفعش، إنت وعدت الراجل، هددني بإنه يرفدني لو جبت سيرة الموضوع ده تاني! "

- "لا يا أستاذ، بلاش تكلمه تاني، أنا هاتصرف"

وبانت في عينيه، النظرة القديمة، فَخفتُ على الناظر، فهو رغم كل شيء، غلبان، وصاحب عيالَ، فقلت مهدئاً الموقف:

- "بص، بلاش تجيب له سيرة الوعد خالص، خليك ذكي، وقول له إنك يعني عايز تاخد أجازة، وإن دي فكرتك إنت، ماشي؟"

- "ماشي يا أستاذ"

وتركته يدخل وأسرعت أولي فراراً!

وفيما بعد، سمعت عن المحادثة الشهيرة التي دارت بين الاثنين، وعن ثورة الناظر العارمة، ورفضه طلبات "جمعة" بشدة، ثم سمعت عن تهديدات العزيز "جمعة" بأن يعود سيرته الأولى وأسوأ، وأنه سوف يجعل الجميع يحلفون بسوء سلوك مدرستنا في كل مكان!

وأظرف ما في الموضوع، أن اسمي لم يتردد أبداً في هذه المحادثة، و لم يعرف أحد حقيقة الدور الخفي الذي قمت به، بل والأعجب أن الناظر العزيز، ظل ينظر لي بإكبار وتقدير، باعتبار أبي الوحيد الذي ركبتُ ظهر الأسد، وروضته، وأنقذته من مأزق هيئة التفتيش، بل إن "جمعة" نفسه، أصبح محترماً في حصتي وحدي، باعتباري الوحيد في المدرسة الذي دافعت عنه يوماً، وحاولت أن أريحه من عناء اليوم الدراسي الشاق!

أيدلوجية المنجنيق المنبثقة من كارت الشحن!

لم يستفزني أحد مثلما فعل هذا الطالب !

فبصرف النظر عن قصر قامته المفرط وعدم تخيلك أنه يملك من الأحبال الصوتية والحنجرة ما يكفي بالفعل لإحداث كل هذه الجلبة .. فهو لم يُضبط ولا مرة واحدة منذ وطئت قدماه المباركتان أرض المدرسة متلبساً بحمل كتاب أو كراسة أو حتى أستيكة !

أضف إلى هذا قدرته غير العادية على تحريض باقي زملائه على الكلام والمشاغبة بمجرد بدئه في الهمس والحركة ومرمطة التختة سيئة الحظ معه وهو يحاول كل ربع ثانية ضبطها في مكانها بحجة أن تكون رؤيته للسبورة أوضح!

أيام بعدد ألف ليلة وليلة أحاول فيها أن أقنعه بالالتفات لما أقول ولو من باب المجاملة وجبران الخاطر .. وكلمات بعدد شعر رأسه يحاول بها أن يقنعني أنه واد جن وفاهم ومتابع كل حرف وهمسة !

حتى أتى ذلك اليوم .. وبان من عنوانه !

لم تكن هذه شمساً .. تلك التي تحدق فيّ بألف عين مفتوحة.. وكرباج نار لاسع يقتحم كل ذرة في جسدي

ويعصرها فيتر العرق الغزير وأبدو كالخارج من تحت دشٍ خربٍ .. فاض فجأة فأتم نعمته عليّ !!

حقيبة الكتب اليوم أثقل من المعتاد ..ففيها كراسات الأولاد التي أكلت نظري وأنا أصححها وهرشت مخي وأنا أحاول أن أجد فيها شيئاً يمت للمنطق !

والطريق يبدو وكأنه يزداد باطراد كلما قطعت خطوة للأمام .. أو أن المدرسة هي التي تسير للخلف كلما حاولت أن أمد يدي وألحق بها !

حتى حذائي لا يبدو أنه في أفضل حالاته بسبب هذه الطوبة اللعينة التي لم تجد لها مكاناً أفضل من مقدمته لتخترقها وتعتدي على حرمة أصابعي المسكينة !

كنت مخلخلاً عندما وصلت إلى المدرسة اليوم..وبعد الوقوف في طابور الصباح كصنم يوشك المسلمون على هدمه في فيلم " ظهور الإسلام"..والصعود للدور الثالث ..وكتابة نقاط الدرس الرئيسية على السبورة ..كنت قد وصلت لحالة من الإعياء لم أعاينها من قبل !

وعندما التفتُّ للطلاب أخيراً كنت على موعد مع طالبي الهمام وهو يمارس حقه الطبيعي في التحدث إلى آخر طالب في الفصل ويكيّف من نبرة صوته ويرفعها وينغمها حتى تصل إليه حيث يستقر !

وكان ردي المعتاد :

ـ "يا حبيبي بطّل كلام .. ده إحنا لسه داخلين الفصل".

ـ "ما أنا بطلب منه كتاب يا أستاذ".

ـ "لما تعوز حاجة يا حبيبي ابقى قولي وأنا بنفسي هجيبها لك .. اتفقنا ؟".

ـ "والله كللك ذوق يا أستاذ".

وبدأتُ الشرح وأنا أجاهد حتى لا أسقط مغشياً عليّ ..فأنا لا أضمن وقتها أن أستيقظ على قيد الحياة مرة أخرى ..إذ أنها ستكون فرصة ذهبية للسادة أكلي لحوم البشر في الفصل لكي يجربوا لأول مرة مذاق لحم مدرس غلبان !

شد وجذب اعتدت عليه، ومحاولات مضنية لإنارة عقول لا تؤمن بأن النور قد اخترعه أحد ، ولا تتمنى من كل هذا السيرك الذي يدور أمامها إلا أن نستمع لآخر نكتة أو تسمع صوت جرس الفسحة ويا حبذا لو كان جرس المرواح !

صمت ثم صخب .. فصمت .. فصخب .. وأسئلة لا علاقة لها بالبطاطس..وإجابات تحاول أن ترمي بالماء البارد على رؤوس شلة الأنس حتى يفيقوا ولو للحظات علهم يخرجون بمعلومة واحدة يمكن أن تنفعهم ذات يوم !

ثم يعود الطالب إياه فجأة للحديث بصوت عال يخل بنظام الدرس .. فأنبهه .. وأنصحه بالهدوء .. فيصمت .. ثم يُحرقه لسانه وتأكله الكلمات .. فيشعر انه مريض .. ويخشى علـــى نفسه نسيان الحـــــروف وطريقة ترابطها مع بعضها البعض.. فيغامر .. ويتكلم ويتكلم ويتكلم !!

وأنصحه .. وأنصحه .. وأنصحه!!!

فيتكلم .. ويتكلم .. ويتكلم!!!

لا مفر إذن!

"قوم اقاااااااااااااااااااف"

لم يكن هذا صوتي وحده، لكن معه شقاء يـــوم كامـــل، ورغبة جارفة في وضع نهاية لهذا السفاح الذي يحتل مقعـــداً لا يستحقه في فصلي على مضض!

ووقف جناب حضرته، بطريقة بين الوقـــوف والجلـــوس، وبهدوء كالذي روت الحكايات أن الرجل الطيب "نيرون" كان يتمتع به وهو يعزف على قيثارته بينما "روما" العزيزة تحترق !!

بصعوبة بالغة، كنت أضغط على "فرامل" قـــدمي حـــتى لا تندفعان وتدهسانه في طريقهما وتريحان منه الـــبلاد والعبـــاد، وبصوت مرعب وطبقة جديدة على أدائي الصوتي كنت أكرر أمامه وبلا توقف : " افتح إيدك .. افتح إيدك".

لكنه طبعاً تظاهر بأن التليفزيون مفتوح على التختة المجاورة، وأن الأمر الذي يسمعه بوضوح تام ما هو إلا الحلقة الأخـــيرة من مسلسل "بكيزة وزغلول"!!!

وبما أنه ليس أحد أبطال المسلسل ولا المخرج ولا المنتج فلم يحرك ساكنًا، وظل ينظر نحوي بلا مبالاة رائعة تستحق وســـام الفنون والعلوم من الطبقة الأولى لو أن في هذا البلد عدلاً مـــا يزال !

وبما أن "طول العمر يبلغ الأمل " فللمرة التاسعة والأربعين كنت أصيح وأكرر ندائي وألوح بالعصا الغليظة الـــتي لـــست أدري من أين امتدت يدي وانتزعتها، وكلي أمل أن يتفـــضل جلالته ويفتح يده الشريفة لينال عـــصا أو اثـــنتين وينتـــهي الموضوع!!

لكن أبداً .. ودي تيجي؟!!

على إصراره لا يزال .. وعلى عصبيتي ما أزال .. والطلاب الذين بدءوا يتململون في مقاعدهم .. وهم ما يزالون في انتظار رؤية الدماء تغطي جدران الفصل وتسيل من تحـــت الأبـــواب لتغرق "الحوش" كله .. دمي طبعاً !!

ثم وبكل هدوء، ولما وجد أن الإرسال التليفزيوني لاشك قد انتهى، وارتفع " الوَش" الذي يصاحب نهاية البث أيضاً، تعطف وتنازل وقال لي بكل كبرياء : "إنت بتكلمني أنا؟"

وكان على طبعاً أن أجيبه بكل أدب واحترام : " أيوه".

على أساس أن هذا التوضيح الأخير سوف ينـــهي حالـــة الشك التي تنتابه، وتقنعه أن يفتح يده الشريفة لننـــهي هـــذا الفصل من المسرحية السخيفة، لأن وراءنا فصولاً أخرى مـــن مسرحية أكثر سخفاً اسمها " شرح مقرر لا يحتاجه أحد"!!

لكن كان لتلميذي العزيز رأياً آخر بالطبع!

فما أن أجبته الإجابة سابقة الذكر، حتى ارتفع درجة أخرى في سبيل إتقان فن التمثيل الصامت، ورسم على وجهه أفظـــع آيات البراءة و الاستحمار وهو يقول : " ليه يا أستاذ؟.. هو أنا عملت حاجة؟؟"

وكانت الإجابة الطبيعية : " لا طبعاً يـــا راجـــل .. ودي تيجي .. ده إنت ناقص لك جناحين وترفـــرف حوالينـــا في الفصل .. بس تعمل إيه بقى في ظلم الأساتذة ؟"

ورفعت العصا فجأة وبحركة غاية في العصبية لتحتل موقعـــاً رائعاً فوق رأسه بالضبط، إذا رفض أن يفتح يده، وطبعاً ها هو ذا يرفض ذلك الظلم البين بكل كبرياء، ويقول لي بلهجة"عماد حمدي" في " الخطايا" : " أنا ما بتضربش يا أستاذ"!

والحق أن رده كان مفاجأة كبرى، حـــتى أن العـــصا قـــد عضت يدي ودفعتها دفعاً لتترل إلى جوار جـــسدي المـــشدود

والمتوتر من إجابته، و ملت عليه وأنا أسأله : " ممكن جنابـــك تقول لي ليه ؟" .. فرد بكل هدوء : " كده " .

ولما وجدهما إجابة منطقية وواقعية، وتفي بالغرض منها تماماً، أحببت أن أكافئه، فرفعت العصا مرة ثانية حتى كادت تخبط في إحدى النجوم التي اعتاد طلابي الأعزاء جعلي أراها محلقـــة في سقف الفصل في عز الظهر، وهويت بها على جـــسده، إلا أن هذه الحركة لم تخل عليه طبعاً، وبكل مرونة ولياقة بدنية عالية مال للخلف، وتفاداها، مما جعل العصا ترتطم بالتختة وتورثني ألماً فائقا!!

وكنت على وشك تهنئته بهذه الحركة البديعـــة، إلا أن الألم الذي بدأ في نشر ذراعي جعلني أأجل هذه الخطوة قليلاً، خاصة أني كنت أحاول للمرة الثانية أن أنال منه، وهو ما لم يسمح لي به طبعاً، فقد أتى هذه المرة بحركة أكثر إبهاراً من المرة الـــسابقة لأجد أن الألم ينتقل من ذراعي لكل جسدي!!

وكان لابد من حل!

بيد يقودها الغل، موجوعة ومنهكة، ملوثة بالطباشير والعرق والحبر الجاف، أطبقت على ياقة قميصه، وبقوة لم أتمتع بها يوماً ولّدها الحب الشديد لشخصه المتواضع، كنت أجرجره خارج التختة، وهو يستميت لغرز جذوره في الأرض والبقاء شـــامخاً وصامداً!

في ركن السبورة، حررته، وبجسدي سددت عليه منافذ الهواء :

ـ "افتح إيدك "

ـ " ما تقدرش تضربني"

وكانت هى "الماتقدرش" الأخيرة التي كان مقدراً له أن ينطق بها في هذا العالم !!!

بيدي والعصا والحقد و الإهانة و منظره وهو يسخر مني وعيون الطلاب التي ترمقني في استخفاف، كنت أعلمه درس العمر !!

بوم .. آآآآآه .. نقطة ومن أول السطر... طاخ .... لاااااااااااااه.. فاصلة .. إيييييييي ... فاصلة منقوطة .. عاااااااااااااااااااء .. انتهى.

بالنظر المشدوه والمرعوب الآن كان الجميع ينظر ناحيتي.. أفواه مفتوحة وعيون تبرق بالخوف وأيدي لأول مرة تصافح العرق.. الكراسات فُتحت على صفحة بيضاء وعنوان الدرس ظهر بطريقة سحرية في مكانه الصحيح ..لأول مرة تقريباً منذ عملت مدرساً .. والكتب انشقت عنها التختة وفُتحت أيضاً على الدرس المطلوب .. والأقلام المبرية الجميلة .. والأفواه التي ظهر عليها شريط لاصق محكم الإغلاق!

من يافته وبقوة، عدت للإطباق عليه، بيد يبدو أنها جديدة تماماً على، وفي حين لم يعد ينطق، أو يبكي، أو يفعل أكثـــر من النظر نحوي بحقد لم أكن أتخيل أنه قادر عليه!

بطول السلم وعبر مساحة واسعة وطويلة أمام أكبر عدد من الطلاب يمكنني الظفر بهم، أجرجره، وحـــتى بـــاب مكتـــب "الأخصائية الاجتماعية".. أدفعه .. وأغلق البـــاب في قـــوة، وأستدير لأبدأ مرافعتي !!

لكن فجأة يفلت مني الشيطان الصغير ويهرع نحو إحـــدى الجالسات على المكتب وهو يصرخ ويولول :

ـــ "ماما .. ماما "!!!

يا نهار أسود ، وكيلة المدرسة، وماما كمان !!!!

والولد يبالغ في البكاء، يعرج ويتأوه و يرفع يده في بـــطء ويدلدلها كأنها كُسرت أو شُلت، وينكش شعره حين تلتفـــت أمه إلي، ويقول من وراء ظهرها بلهجة "أحـــدب نـــوتردام " شخصياً : " الراجل ده ضربني عشان ما رضيتش أدفع شـــلن للطباشير يا ماما .. أعمل إيه يعني ما أنـــا كنـــت ســـلفت مصروفي لواد غلبان في الفصل"!!!

ـــ " شلن طباشير .. وواد غلبان .. يا ابن الـــــ !!"

والست الوكيلة، ترمقني بغل، وتنظر حولها في عصبية، يبدو أنها تبحث عن عصا ملائمة، تسلمها لابنها لكي يقتص مني ، فالعين بالعين، والبادي أظلم!

ولما لم تجد ..استدارت إليّ .. وبصوت مبحوح من الانفعال قالت :

ــ " بشلن طباشير يخليك تعمل في الواد كده ؟"

فلم أجبها، ولكني أعطيتها ظهري وأنا أقول :

ــ " معقول يا حضرة الوكيلة .. لو شلن كنت سبته .. لكن دي كانت بريزة بحالها .. بريزة"!!

وخرجت من الغرفة، بلا محاولة للدفاع أو الهجوم، فلن يفيد ذلك بشيء!!!

وبدأ ــ كما توقعت ــ مسلسل "التلكيكات" بقيادة الأم الموتورة ست الوكيلة هانم!!

من تأخر لمدة دقيقة إلا ربع عن الحصة، وعدم مراعاتي للأصول التربوية أثناء شرح حصتي، وضعف أدائي التعليمي، و حتى نقص التفاعل الميتافيزيقي بين البعد البلوري وأيدلوجية المنجنيق المنبثقة من كارت الشحن في حصتي !!!!!

لكن من حسن حظي، وسوء حظ الشيطان الصغير، أن جاء أحد أولياء الأمور بعد أسبوع، ودخل على الوكيلة وهو يصرخ

ـــ كهندي أحمر اكتشف لتوه أنه قد انقرض!! ـــ ويوشـــك على قتلها بقلم جاف كان يمسكه في يده بعصبية ويلـــوح بـــه بشدة، فابنها المؤدب الذي يضحي بمصروفه من أجل مساعدة الفقراء والمساكين والذي يعاني من اضطهاد وظلم المدرسين له، قد أهدى ابنه علقة فاخرة بالأمس يرقد بسببها الآن في قـــسم العظام بالمستشفى العام!!

ولم تكد تنتهي من التفاهم مع الرجل الثائر، حتى أتحفهـــا القدر بطالب آخر، يشكو إليها أن ابنها قد لطش منه مصروفه والمقلمة الجديدة التي بعث بها والده إليه من "الكويت"!!

وفجأة وجدت الست الوكيلة أمامها حقـــائق جديـــدة لم تعرفها من قبل عن ابنها ذي الجناحين والهالة البيـــضاء فـــوق رأسه، مما دفعها للشك في أقواله عني، فاستدعته من جديـــد، وحاصرته وضغطت عليه حتى اعترف بكل شيء !!!

كانت تريد أن تعتذر !

فأعادت صياغة الجدول .. ورفعت عني كـــل الحـــصص المبكرة .. ومنحتني كل الحصص المتأخرة !!

وبسبب هذه اللفتة الكريمة الـــتي لا يـــستحقها شخـــصي المتواضع، لم أعد أحلم بالعودة لمنزلي مبكرا كما يفعـــل كـــل المدرسين مرة أو مرتين أسبوعيا، فقد كنت آتي للمدرسة يومياً في السابعة صباحاً - لا دخل للوائح والقـــوانين بالمجـــاملات

الشخصية !!ـــ ثم أجلس ساعتين أو ثلاثة أطرقـــع أصـــابعي وألعب كوتشينة مع عمٍ" علي" الفراش، حتى تأتي العـــصرية، فأدخل حصصي منتعشاً ومبتهجا أغني " قلنا هنبني وأدينا بنينا السد العاااااالي"

وكان هذا أفضل ما يمكن للجميـــع..وكـــان فيـــه الحـــل السحري لمشكلة كلام الطلاب في الحصة، ..فقد كنت أشرح كما يحلو لي .. و أصول وأجول واضرب الأمثلة..في الوقـــت الذي يكون فيه طلابي الأعزاء قد ناموا وشدوا الأغطية منـــذ سبعين سنة على الأقل .. ولم تعد لديهم نية الاستيقاظ إلا مع جرس المرواح!!

المدرس الخفي!

الأستاذ "مُخلِص" متفرّد بذاته، بين أساتذة بر مصر كلــه، فهو يؤمن أنه بالعصا -والعصا وحدها- يفهم التلاميذ أســرار الكون، والحياة، فهي رجله ويده ولــسانه في الفــصل، أمــا الشرح، وتفتيح عيون الطلاب، فرجسٌ من عمــل الــشيطان، وأما أن يسأل تلميذ، أو تستفسر طالبة، فإثم وبهتان عظيم!

وهو إذا انتهت حصته -وهي تنتهي عــادة أســرع مــن حصص أي زميل!- يبحث بإصرار عن مكان قصيّ، يختبــئ فيه، ويستقر، حتى ينتهي توزيع "حصص الاحتياطي"، فلا يناله من الحب جانب!

رغم أن حصصه، التي يُدرّسها، نزر يسير، لا يملأ عينــاً ولا كفاً، ولا يُرضي عقلاً أو ضميراً! فهو قد تحايــل، وتلاعــب، وقدّم من الحجج والأدلة والبراهين، ما لم يقدمه وفــد مــصر نفسه، في مفاوضات "طابا"، لكي يقنع الناظر العزيــز، بــأن يحصل على إجازة كل أسبوع، مقدارها -صدق أو لا تصدق- ثلاثة أيام!! هذا غير يوم الجمعة طبعاً، الذي هو حق مكفــول لكل العاملين في الدولة، وعند هذه النقطة بالذات، تجد الأستاذ "مُخلِص" مُخْلصاً بحق، وأميناً، على قوانين الدولة، وتعليماتها!!

واستجاب الناظر العزيز طبعاً، بعد أن قام الأستاذ "مُخلص" بإصلاح راديو قديم له، بنفسه -فهو يعمل كهربائياً بعد الظهر- ورفض في إصرار أن يتقاضى عنه مليماً واحداً! وأصبح الأستاذ "مُخلص" بذلك، مدرساً "قطاعي"، وأصبحنا نحن مدرسين "جُملة"!!

مرة زارني في حجرة "الكرار/ المدرسين"، حيث البوتجاز، والنار المتقدة، التي توشوش براد الشاي، ليغلي على مهل، وحيث أدوات مُدرسي الزراعة، من فئوس ومقاطف وبذور، وعدَد مدرسي الصناعة، من "شواكيش" و"بِنَس" و"لمبات" سليمة ومحروقة، وحيث خزين المدرسة كله من أدوات النظافة، والكتب أيضاً!، رآني مدفوناً، بين أكوام من الكراسات والدفاتر، فهاله الأمر، وتراجع خطوة للوراء، وهو يقول:

- "إيه ده يا أستاذ؟"

- "كراسات الحصة بتاعة الطلبة، باصححها".

- "وهو لازم يعني؟"

- "طبعاً يا أستاذ، ده واجب مقدس، وجوهري في العملية التعليمية، ممكن الأرض نفسها تخرج عن مدارها، لو ماتعملش يومياً، أمال إنت مش بتصحح كراسات الأولاد؟"

- "لا طبعاً!، وأصحح ليه؟! عندي كام واد شاطر كده، باخليهم يقوموا بالمهمة دي، وأصرف لهم كام درجة زيادة وخلاص! هو العمر بعزقة؟!"

ثم أرهف سمعه فجأة، ومد رقبته يتنصت، وهـو يقـول في دهشة:

- "إيه ده؟ معقول! حضرة الناظر بينادي عليّ؟ أمـا أروح أشوفه عايز إيه"

واختفى فجأة من أمامي، كما ظهر فجأة، حتى لا أقول له: "إيدك معانا"، ليكلّم الناظر، رغم أن الناظر، في هـذا اليـوم بالذات، من أول كل شهر، يكون في الاجتماع الـدوري في الإدارة!!

ويوم "القبض"، يمسح نظارته مرتين، ويقف أول واحـد في الصف، يتسلم نقوده بحذر، ويعدّها بدل المرة، ألفاً، أو ألفـين، إن كان في الوقت متسع، ناظراً يمينا ويساراً كل لحظة، مزدرداً لعابه الجاف دوماً، ثم يبدل النقود القديمة بغيرها، ويدقق في اسمه الثلاثي، والرقم المكتوب أمامه جيداً، ويقوم بقراءته مرة بعـد مرة، ثم في النهاية -تحت إلحاح ورجاء أمين الخزينـة، الـذي يكاد يبكي، قهراً وغيظاً، وتشجيع طابور المدرسين الطويـل، الذي ينتظر دوره في أمل- يتفضل سيادته، ويسلم أمره إلى الله، ويُوَقّع، وهو ما يزال يعتقد اعتقاداً جازماً، أن في الأمر خُدعـة ما!

أما لو حاول أحد أن يُنقص من الراتب مليماً، بـسبب أي مصاريف إدارية مثلاً، أو احتياج المدرسة لشراء شيء معـين،

يتم جمع ثمنه من المدرسين، أو دفع فاتورة التليفـــون -الـــذي يستخدمه الجميع بلا استثناء- فالقيامة -بشحمها ولحمهـــا- تقوم فعلاً، وينبعث الجميع من أماكنهم، على صوت النفخ في "الصور"، الذي هو طبعاً صوت الأستاذ "مُخلِص"، وهو يرغي ويزبد، ويتهم الجميع، بالسرقة، والنـــصب، وعـــدم تقـــدير الظروف، ومحاولة إحراجه، ولي ذراعه، وتحميله ما لا يطيـــق، وينصرف غاضباً -دون أن يدفع بـــالطبع- رغـــم أن المبلـــغ المطلوب، لا يزيد غالباً على جنيه، أو اثنين بالكـــاد، ولكنـــها مسألة مبدأ، ورفض الانصياع للظلم والعدوان!

وكل خبر عند الأستاذ "مُخلِص" معلوم، ومعروف، من قبل أن تترل به نشرة، أو يخطر على قلب بشر، وأي نقل أو نـــدب أو جزاءات، علمها عنده، وحكاياتها ملك يمينه، فهو قد أصلح "راديوهات" و"تليفزيونات" نصف العاملين في الإدارة، علـــى حسابه الخاص، وأصبح بذلك مَلِكاً متوجاً، على عرش الأخبار الجديدة، والمعلومات التي لا تتوفر لأمثالنا من الغلابة، والعاطلين عـــن الموهبة، الذين لا يجيدون إصلاح "الراديوهات"!!

ويوم يجيئه الموجه، فشاي، وقهوة، وبسكويت بالشيكولاتة، وسلامات وأحضان، وشرفتنا، ونورتنا، وأنت شمسٌ والآخرون كواكب، حتى لا يكلف الموجه خاطره، ويصعد للطابق الثاني،

ويدخل فصله، ويرى آثار إخلاصه وتفانيه في العمل، والتي لا ينكرها، إلا جاحد أو حاقد أو مجنون!!

وإذا أصـــابتك القُرعة، ومالت كفة حظك، ووقعتَ تحت يديه، وتحدّثَ إليك، فكل ما يفكر فيه: كيف يستأذن غــداً، وكيف يتخلص من حصة كذا، وفلان تأخر نصف دقيقة عــن طابور الصباح -فهو من بلد تبعد عن المدرســة ١٠ ســنوات ضوئية!- والناظر المتحيز لم يقدمه لمحاكمة عسكرية! وهذا ظلم وبهتان عظيم! وماذا فعل مع الوكيل الفلاني، وماذا قــال لــه سائق العربة، وهو يساومه على الأجرة، بحجة أنه يركب معــه كل يوم و..و..و..

حتى يمنحك إحساساً مؤكداً، بأن هيروشــيما ونجــازاكي والبوسنة والهرسك وفلسطين والعراق وأحداث ١١ ســبتمبر وتسونامي والإيدز وإيبولا وأنفلونزا الطيور نفسها، لا شــيء بتاتاً، مقارنة بهمومه الجسام، وأحزانه العظام!!

أما عن دفاتر تحضيره ودرجاته، فانضباط تام وكامــل، لا يتقنه أستاذ في علم الإداريات، حتى لا يكــون لأحــد عنــده حجة، أو نقطة ضعف ملموسة، يتسلل منها إلى رقبته! وهــو بذلك -من وجهة نظره- أكمل مثال لمدرس، خلقــه المــولى سبحانه، وأنْعَم به على هؤلاء الطلاب المتمــردين، الــذين لا يقدرون قيمته، ولا يعرفون العظمة، حين يرونها!

ولما كان ديننا الحنيف، يحض على أن يقف الأصغر للأكبر، فالأستاذ "مُخلِص" يرى في حكاية أن يقف المدرس طيلة الحصة، ليشرح، بينما التلاميذ الملاعين، جالسون، في راحة وهناء، خروجاً على تعاليم الدين، وامتهاناً لكرامة المدرس والناظر والفراش ومسئول أمن البوابة، وكعادته في تغيير كل ما لا يعجبه فوراً، فقد ابتكر وسيلة فاعلة، للقضاء على هذا الظلم المبين، الموجه مباشرة إلى صدر المعلم!

فهو ما أن يدخل الفصل، ويقوم التلاميذ لتحيته، حتى يثبّتهم على وضع الوقوف، طوال الحصة، ويجلس هو، هانئاً سعيداً بما قدمت يداه!

وفي آخر بحث علمي مذهل، سمع به الأستاذ "مُخلِص" - فهو لا يحب القراءة بالمناسبة، ويعتبرها كلاماً فارغاً!-عرف أن الطباشير، ضار جداً بصحة الإنسان، ومن الممكن أن يؤدي إلى العقم، ولذا، فكل ما يُكتب على السبورة، بأيدي التلاميذ وحدهم، وهو ليس كثيراً على كل حال، فهو يكتب العنوان، والتاريخين، وتلخيصا هزيلا للدرس، منقولا حتماً من كتاب خارجي! ووجهة نظره في ذلك، أنه ثروة قومية، ونادرة لن تتكرر، فالأولَى المحافظة عليه، وعلى صحته، أما التلاميذ الملاعين، فلا قيمة لهم، ولا وزن، وإذا أصابهم أي شيء، فقضاء

الله وقدره، ومن ينكره، خارج عن الدين، ولا يستحق نعمة الحياة، كما أنهم أغنياء، يمكنهم أن يذهبوا إلى أكبر دكاترة في العالم، أما هو فغلبان ومسكين، لا يملك إلا راتبه الهزيل، الذي لا يكفي شيئاً، إضافة إلى ألف أو ألفين شهرياً، يتحصل عليها بالكاد من بضعة دروس خصوصية هزيلة، لا تُسمن ولا تُغني من جوع!

الشيء الوحيد الذي لا يمانع في أن يتحمل مسئوليته، بل ويسعى إليه في إصرار، هو "الإشراف"، وبمقتضاه، من المفروض أن يطمئن على وجود كل مدرس في حصته، وخلو الطرقات من الطلاب، وتنظيم الطابور، وعدم حدوث مشاكل في الفسحة، ولكنه يطبق كل هذا -طبعاً- بطريقته!

فتجده يقضي من حصته في هذا الإشراف، ساعة في الاطمئنان على أن كل مدرس في فصله، وساعة في التنقل من فصل لآخر، وساعة في الطلوع والنزول على السلم، وساعة أخرى في مراجعة جدوله، وما يتبقى بعد كل هذا، فإنه يُكَرسه، مخلصاً وراضياً، لحصته، التي تتكون من ٤٥ دقيقة في الأساس، حتى إن بعض التلاميذ، قد نسوا -حقيقة لا مجازاً- اسم المادة التي يدرّسها لهم!

ثم هو في النهاية، ورغم كل ذلك، لا يلتقي مدرساً، أو ولي أمر، أو أي إنسان، في وسيلة مواصلات، أو سائراً على قدميه،

أو طائراً في السماء، بقالاً، أو ميكانيكياً، أو طبيباً، أو طوبة من طوب الأرض، إلا ويفتح فوق رأسه، وابلاً كثيفاً، من الشكوى والتذمر، عما يجد من شقاء التدريس وتعبه وعنائه!

وكنت أتأمل حاله، وحالي، يومياً أخرج من الفصل مردوماً بالطباشير والعرق، في مزيج رائع، لا تعرف قيمته إلا أمي الباسلة، وهي تغسل لي ثيابي، وتحاول -باستماتة- إدخالها الخدمة من جديد!

وهو يبدو دائماً منتعشاً كمصيبة، نظيف اليد والملابس، والعقل أيضاً!

نظري يخفت رويداً، وحجم عدسة نظارتي، يزيد باطراد!

وهو ينظر إليك دائماً بعينين لامعتين، لا ترمشان، أو تتحولان عنك ثانية واحدة، ويبدو أنهما تريان إلى ما تحت ثيابك نفسها!

حذائي المسكين، تَخلى عن جنسيته السوداء، وطالب بحق اللجوء السياسي للون الأبيض، من كثرة الأتربة المتراكمة عليه، من سعيي المتواصل في الفصل، بين السبورة والتلاميذ!

وحذاؤه، في عز شبابه، يضج بالسواد، كيوم ولدته أمه!!

جسدي يَنحل، وعقلي يتحول إلى كوكتيل فواكه بالباذنجان! وهو في غاية الروقان والصهللة!

وكان لابد من أفعل شيئاً..

فكرت أن أذهب للموجه، وأرجوه أن ينقلني إلى أي مكان آخر، ولكني تراجعت في آخر دقيقة، فأنا لا أجيـــد إصـــلاح "الراديوهات"، وبالتالي فلن يقبل طلبي!

فكرت أن أستقيل، وأهيم علـــى وجهـــي، في الـــشوارع والطرقات، ولكني تذكرت الخمسة عشر عاماً، التي قضيتها في التعليم -من الابتدائية حتى تخرجت- والسنوات الأربع الـــتي قضيتها على الرصيف، حتى تم تعييني، وأطنـــان النقـــود الـــتي أنفقتهَا خلال ذلك، وصَعب عليّ، أن أضحي بكل هذا!

فكرت في أن آخذ حتى إجازة وضع، ولكني تـــذكرت، أني لست حاملاً!

ماذا أفعل يا ربي؟

بلغت الروح الحلقوم، وضاقت بيَ الدنيا بما رحبت، ورفـــع الهم رايته على ربوع قلبي!

ولكن الفرج -رغم ذلك- جاء من حيث لا أحتسب، ولا أتصور، وبين يوم وليلة، استيقظت المدرسة كلها، على خـــبر نقل الأستاذ "مُخلص" إلى مدرسة أخرى، ولم يـــصدق أحـــد ذلك، وجعلوا فيما بينهم، يتكلمون، ويتهامسون، ويحاولون أن

يتأكدوا من هذا الخبر بأي شكل، ولم يقتنعوا حقيقة، إلا عندما ظهر الأستاذ "مُخلِص" نفسه، وهو يحمل بين يديــه "نــشرة النقل"، وكان يبدو مهموماً، وحزيناً، مما دفع ببعض الشفقة إلى نفوسنا، وقد تصورنا أن رائحة أعماله العظيمة، قد وصلت إلى أنوف المسئولين الشرفاء -الذين لا يملكون راديوهات ليصلحها لهم!- وقرروا عقابــه، بنقله إلى تلك المدرسة الأخرى، التي لا شك تقع في النصف الآخر من الكرة الأرضية!

وغاب نجم الأستاذ "مُخلِص" من سمائنا أخيراً، ليسطع مــن جديد، في مكان آخر، لا شك أنه "محظوظ" أكثر منا بكــثير، وسادت موجة من الراحة العامة، نفوس الجميع، وقد عاد كل شيء سيرته الأولى.

ولكن الأيام التالية كانت تحمل لنا أكثر من مفاجأة، فعندما سألنا عن موقع المدرسة الجديدة التي انتقــل إليهــا الأســتاذ "مُخلِص"، اكتشفنا أنها في بلدته نفسها، حتى إنه يسير إليهــا، ولا يركب أي مواصلة!

كما أن قرار النقل، كــان بعلمــه ورغبتــه، وبعلاقاتــه العنكبوتية، وما كان حزنه، يوم رأيناه، إلا خداعاً ومواربــة، وقد فعل هذا، لأنه قد وجد العمل الذي يقوم به في مدرستنا، كثيراً جداً، بما لا يمكن أن يتحمله!، أما حيث ذهب، فالنــاظر

-نظير إصلاح الراديو والتليفزيون أيضاً- قد جعله لا يحضر، إلا يوماً واحداً فقط في الأسبوع، بل وقد ترك له حرية اختيار هذا اليوم أيضاً!!

ومن يومها، وأنا قد فقدت اهتمامي كلية باللغة العربية ودروسها، ونسيت ما تعلّمت وما درست، راضياً، ومقتنعاً، ومتحمساً، وانصبّ كل عزمي وتفكيري، على إتقان وتعلم إصلاح "الراديوهات" و"التليفزيونات"، والتي اتضح لي -بالتجربة والبرهان- أنها أكثر إفادة ونفعاً، لكل مدرس، يريد أن يحتفظ بشيء من قواه العقلية، أو يظل على قيد الحياة!!

وجاء عيد الأم

وجاء عيد الأم، بفرحته وبهجته، ووعده للأمهات هـــدايا قليلة السعر عادة، ولكنها كبيرة القيمة في نفوسهن، إلى درجة لا تصدق، وقررت أن أخصص "حصة التعبير"لهذا الاحتفـــال، لأتكلم قليلاً عن ما للأم من أفضال، علينـــا جميعـــاً، وبـــالمرة أتعرف إلى وجهات نظر الأولاد في هذا الموضوع.

وكتبت العنوان، بخط ثقيل وواضح على الـــسبورة "عيـــد الأم"، وأنا أهيئ ذهني للكلام، ولكن ولداً في حجم الـــبرص المترلي تقريبًا، يبدو أنه قرأ النصف الأول من العنـــوان فقـــط ، وقف فجأة وهتف بي بمنتهى العصبية :

ــ " بس لسه بدري قوي على عيد الأضحى يا أستاذ!"

فالتفت إليه في دهشة وأنا أضغط على كلماتي :

ــ " وحد جاب سيرة عيد الأضحى يا ابني .. أنا بقـــول عيد الأم .. الأم يا ابني .. الأم"

فنظر نحوي ومط شفتيه، وكأنه لم يقتنع، وهمّ بقول شـــيء ما، ولكنه عاد فرجع في كلامه، وجلس وهو يـــرمقني تـــارة، والسبورة تارة أخرى.

وتنهدتُ، بداية غير مبشرة، وعدت أكتب عناصر الموضوع، وبعد أن انتهيت، التفتُ إليهم، وحاولت رسم ابتسامة متفائلة على وجهي، وأشرت لعنوان الدرس وأنا أسألهم:

ـــ "عارفين النهارده يوم إيه يا ولاد ؟ "

ـــ " أيوه طبعاً "

ـــ " يوم إيه ؟ "

ـــ " الأربع يا أستاذ ! "

فتمالكت نفسي، وعدت أقول لهم بمنتهى الهدوء :

ـــ " مش قصدي يوم إيه من أيام الأسبوع ، قصدي مناسبة إيه النهارده؟ "

ـــ " مناسبة إيه يا أستاذ؟ "

ـــ " عيد الأم يا إخوانا..عيد الأم .. ده حتى العنوان مكتوب على السبورة .. عيد الأم "

ـــ " يعني أمهاتنا هيدونا العدية يا أستاذ .. يا حلاوة "

وكدت أصاب بالفالج، ولكني تمالكت أعصابي، وأنا أقول لهم :

ـــ " لا يا شباب .. العيد ده .. إحنا اللي مفروض فيه نقول لأمهاتنا كل سنة وهم طيبين..ونقدم لهم هدية رمزية بسيطة ..تعبيرًا عن حبنا وشكرنا للي بيعملوه عشانا "

ـــ " وده لازم يعني؟"

ـــ " يا ابني دي مجرد كلمة رقيقة ..وشعور طيب ..ناحية والدتك .. واللي مفروض مايكونش اليوم ده بس وإنما طــول السنة "

ـــ " أيوه.. يعني هنستفيد إيه يعني؟"

ـــ " هنستفيد إننا هنفرح أمهاتنا .. ونحسسهم بالسعادة .. مش كفاية؟"

ـــ " وتفتكــر ده ممكن يأثر على زيادة المــصروف يــا أستاذ؟"

فنظرت نحوه في غيظ ، وأنا أحــاول تمالــك أعــصابي، وتذرعت بالصبر وأنا أقول :

ـــ " مش لازم يكــون له تأثير يــا ابــني .. دي حاجــة معنوية"

ـــ "معوية إزاي يا أستاذ؟"

ـــ " معنوية يا حبيبي مش معوية.. معنوية .. يعني حاجــة صادرة مــن القلب.. بدون ما يكون وراها مصلحة شخصية"

ـــ " طيب بلاش الفلوس .. يعني الموضوع ده هيزودنــا في الدرجات؟"

ـــ " لا يا حبيبي ..مش هيزودك في الدرجات .. لكن زي ما قلت لك .. ده هيزود رصيدك مــن الحــــب في قلـــب والدتك"

ـــ " رصيد ؟.. بس أنـــا مـــليش دفتر في البوســـتة يـــا أستاذ!!!"

وارتفع اللغط فجأة، وأحسست بالكلمات تتطاير، من هنا ومن هناك، و يبدو أن الجميع غير مقتنعين بما أقـــول، وغـــير قادرين حتى على هضمه بأية حال، أو تـــصوره، وأحســـست بالتعب، وبأنـــي أحارب في معركة خاسرة، ووقفت طالبـــة فجأة وقالت لي :

ـــ " يعني إيه المطلوب مننا بالظبط يا أستاذ ؟ "

ـــ " يا بنتي أنا مافرضش عليكم حاجة .. كل اللي بحاول ألفت انتباهكم ليه .. هو كلمة طيبة .. تقولوهـــا لأمهـــاتكم النهارده بس والله العظيم مش أكتر"

ـــ "حاضر.. حاضـــر يا أستاذ .. بس ما تزعلش نفسك إنت "

والتفتتْ إلى باقي التلاميـــذ وصـــاحت بـــصوت عـــال " مسرسع" وآمر:

ـــ " خلاص يا إخوانا.. مـــاتكبروش الموضـــوع .. ومـــا تـــحيروش الطاسة.. كـــل الحكايـــــة بُقّـــين رشـــوهم ع الفاميليه.. لما تروحوا و خلصنا.

وجلستْ فجأة، كما قامت فجأة، وأنا أنظـر نحوهـا في ذهول، من هذه اللغة الراقية التي استخدمتها، ومـن تخيلـها للموضوع، ومن حسمها للنقاش بهذه الكيفية، ولكني لم أملك إلا أن أتجاهلها على مضض، وأعود للمحاولة اليائـسة لكـي أشرح لهم عناصر الدرس.

وفي اليوم التالي ، بعد طابور الصباح ، وجـدت أحـدهم ينادي عليّ بصوت عال ، ويجري ناحيتي ، فتوقفت ، وعرفته ، واحد من القلائل المحترمين من طلبتي ، وضع يده في يدي بقوة، وشد عليها ، ثم أخرج من جيبه " كارتـاً " وقلمًـا أحمـر ، وضعهم جميعاً في يدي، وهو يقول بحماس وانفعال وفخـر ، ووجهه يزداد احمرارا في كل لحظة :

ـــ كل سنة وحضرتك طيب بمناسبة عيد الأم يا أستاذ !

وتركني وهرول ، قبل أن أرد عليه، وعلى الكارت وجدت هذه الكلمات :

" إلى أمي الأستاذ حسام : كل سنة و انت طيب يا أمـي وأستاذي وكل شيء لي في الحياة".

وتأكدت ساعتها أن كلامي عن عيد الأم قد أتى بنتـائج باهرة باهرة باهرة !!

في مواجهة التنين

صليتُ الفجر حاضراً، وسلمت أمـري للـذي خلقـي، وارتديت كل ما وجدته في متناول يدي من ملابس، لأبـدأ الـرحلة الخلابة، لمدرستي العزيزة، الكائنة فـي الطـرف الآخر من المجرة!!

المنازل في الطريق متلاصقة، ومنكفئة على بعضها الـبعض، تتقي لفحة البرد الصباحية، والحوانيت لم تفتح عينيها بعد، رغم أضواء المصابيح الحكومية المضاءة من ليلة أمس، ووحدي أسير، كأني أول من تطأ قدماه الأرض!

أعاين الضباب، أشمه، وألمسه، أُخرج نفساً حـاراً، فيكـاد يتجمد على طرف شفتي، قبل أن يتجاوز حدود فمي! وأغـني "يا حبيبي كل شيء بقضاء"!!

أخيراً، يبدو على المدى القريب شخصان، كأنما انـشقت عنهما الأرض خصيصاً ليؤنسا وحشتي للحظات، أحاذيهمـا، وألقي عليهما السلام، فيردان عليّ بطريقة "سعت الله"، الـتي أحس أن صاحبها معوق فكرياً، لا يرجى معه أي علاج!

ولم أكن قد ابتعدت عنهما تماماً، حينما أشار أحـدهما إليّ، وهو يقول لزميله في حسد:

- "شايف يا سيدي، أهم دول المرتـــاحين في البلـــد دي، تلاقيه رايح على الغيط بتاعه دلوقتي، يزرع، ويقلع، وفي آخـــر السنة تلاقيه مليونير، حظوظ!!!"

وكدت أعود إليه، لأصحح فهمه الخـــاطئ، وأقـــسم لـــه وأحلف، أني مدرس محترم، لا عندي طين ولا ملك، ولكنـــها قرارات السيد وزير التربية والتعليم -أعزه الله- هي التي فعلت بنا ذلـــك، بعد أن جعلت طابور الصباح في السابعة والربـــع صباحاً!!

ولكني عدلت عن ذلك في آخر لحظة، وقلت بـــيني وبـــين نفسي "يلاّ، هي يعني جت عليكم؟!، الصيت ولا الغنى!"

ومضيت أشق طريق الظلمات!

المشكلة في هذا الوقت المبكر، أن أوامر السيد الوزير الـــتي تسري علينا، لا تخضع لها وسائل المواصلات بالضرورة، ولـــذا فمن الخيال العلمي، أن تجد ما تركبه جاهزاً، وحاضراً، خاصة وأن مشوارك نفسه، يتطلب عدداً من أرقى أنواع ومـــوديلات السيارات الفاخرة!

فأنت تبدأ أول فاصل من معاناتك اليومية، ومكابدة الحياة، بمجرد وصولك لموقف السيارات!

فأنت تترقب، وبعد أن تترقب، تترقب، ثم تترقب، فتترقب، وفي النهاية، لا يكون أمامك، إلا أن.. تترقب!!

حتى إذا أتت سيارة ما، ذات لحظة، وأوصلتك لنقطة علـــى الطريق، فأنت تقف هناك، في انتظار ما يُقلّك للنقطة التاليـــة، وهكذا!

إلى أن تصل في النهاية -إذا وصلت أصـــلاً!- وأنـــت في منتهى السعادة والانتعاش والرضاء عن الكون كله!

وغالباً ما أصل إلى المدرسة في التاســـعة صباحاً -إذا كنتُ حسن الحظ ومواصلاتي حاضرة!- لأجد مكافـــأتي المجزيـــة في انتظاري، بما يعوض تعبي وبهدلتي وقلة نومي، حيـــث يكـــون الناظر العزيز قد "شطب" عليّ!!

ولما تكرر الموقف أكثر من مرة، حاولت إفهامه أني لا املك أجنحة طائرة، أو محركها النفاث، وأني مجرد بـــشري، يخـــضع للظروف الطبيعية المحيطة به، كما أن راتبي لم يكف بعد لشراء سيارة خاصة، توصلني على موعـــد الحـــصة الأولى بالتمـــام والكمال، وطلبت -حلاً لهذا الإشكال- أن لا يضع في جدولي الحصة الأولى على الأقل، ويمنحها لأي مواطن صـــالح، مـــن المدرسين أبناء البلدة العامرة، ولكن رده كان مذهلاً، ومستفزاً، حتى إني فكرت ساعتها، في ارتكاب أول جريمة قتل في حياتي، فقد أفحمني الناظر العزيز، لا فُض فوه بقوله:

- "بس الحصة الأولى بتبدأ بدري قوي على بتوع البلـــد، وما أعتقدش إن حد فيهم يقدر يصحا في الميعاد ده!"

فتمتم في حشرجة واضحة، أحسست فيها ببقايا زئير أسد
محبوس في قفص حديدي:
- "آه، طبعاً، طبعاً، مفهوم!! "

كبش فدا!

اليوم غير عادي بالمرة!

الناظر ثائر، أحمر الوجه من الانفعال والغيظ، يتنقل من مكان إلى مكان بسرعة الفمتو ثانية!

الأساتذة والإداريون والعمال متجمعون، في كل ثقب إبرة يمكن أن تتخيله، يتناقشون، يهددون، ويرفعون الأصوات تارة، وتارة يخفضونها، مؤكدين آراءهم بالتلويح بالأيدي مرة، ومرة عن طريق حركات الجسد العصبي الساعي للخلاص من الأزمة بأي ثمن!

الحدث: حصار المدرسة والتهديد بسلخ جميع المدرسين أحياء!

والسبب: سعادة جناب حضرة معالي "سطوحي"!

و"سطوحي" -لمن لا يعرف- هو أغلى طالب في المدرسة!

فوالده معار إلى دولة خليجية، منذ ١٥٠ ألف سنة تقريباً، وإن كان لا علاقة فعلية بينه وبين أبنائه، فإنه يحرص على تعويضهم عن غيابه بما لذ وطاب من أفخر أنواع الثياب والطعام والذي منه، لدرجة لا يمكن لأحد أن يتخيلها!

لذا تجد "سطوحي" العزيز دائماً منتفخ الجيوب بالمال بمناسبة وبلا مناسبة، يبرق ويلمع بالكريم والزيوت الطبيعية على شعره

ومن فوري، أخرجت الموبايـــل -لتحيـــا التكنولوجيـــا!- واتصلت بلجنة المتابعة بالإدارة التعليمية، وهم أحفاد "جنكيـــز خان" و"دراكولا" و"راسبوتين" بالمناسبة!، واليوم الذي يمضي عليهم بدون إيذاء أحد، يوم لا شمس له ولا لزوم!!

وهكذا، رحت أولول، وأصيح، ومسئولية يا فندم، وكارثة يا فندم، والساعة الآن الثامنة والنصف، ولم يحضر النـــاظر، أو تفتح الأبواب، والطلاب متزاحمون أمام المدرسة، يكاد الحـــزن يقتلهم، على هذه اللحظات الثمينة، التي تضيع مـــن نـــصيبهم المفروض، من العلم الغالي، وأنها ليست أول مرة!!

والتقط المتابع طرف الخيط مني، وقال كأنه ينتظـــر هـــذه الفرصة طول عمره:

- "اكتب مذكرة بالواقعة دي يا أستاذ حـــالاً، وخلـــيّ اتنين شهود من الأهالي، يوقعوا معاك، وأنا جاي حالاً"

وأنا طبعاً ما صدقت!

إذ ورقة بيضاء قد قطعتها من دفتر التحضير -هذا التصرف ممنوع بالمناسبة، فصفحات الدفتر لابـــد أن تكـــون مرقّمـــة ومختومة، وإلا أخذ المدرس جزاء وخصماً!!- وجعلت اثـــنين كانا يمران بالصدفة أمام المدرسة، من أولياء الأمـــور، يوقعـــان

على الورقة، ثم جلستُ على الطوار من جديد، وهاتــك يــا كتابة!!

وجاء الناظر من سوء حظه متأخراً للغاية في هــذا اليــوم، حوالي التاسعة والنصف، وهــو مطمئن البال، لا يحمل هــم التأخير وخلافه، ليفاجأ بمسئول المتابعة في انتظاره، في مكتبــه الخاص، وأنا جالس إلى جواره، في زهو وكبرياء، وفرحــة، لم أستطع السيطرة عليها!!

وفقد الناظر النطق للحظات، وكأنه لم يستوعب الأمر بعد!

وعلى طريقة أفلام "الأكشن"، أشرت إلى النــاظر بيــدي ورأسي وجسمي جميعاً، وأنا أقول بلهجة خطيرة:

- "هو ده".

ثم تبادلت كلمتين هامستين، مع المسئول، بحيث لا يسمعني الناظر، وسارعت بالانسحاب من الحجــرة، لأتــرك القــط يتحدث -بود ومحبة وأدب- مع الفأر!

وما كاد مسئول المتابعة ينصرف، بعد أن أتم إجراءاته، ونال فرصته الكاملة في الإيذاء، على طبق من ذهب، حتى فوجئــت بالناظر شخصياً، يدخل إلى فصلي، وعيناه تطقان بالشرر، الحق أني خفت، وتوقفت عن الحركة للحظات، مترقباً تصرفه التالي،

ثم تراجعت لأكون وسط التلاميذ أكثر، وأمسكت بالعصا في قوة، وكأني سأبارزه!

وأحسست للحظة بأني أقف في مواجهة مباشرة مع تنين حقيقي، لن يلبث أن يفتح فمه -كما في الأفلام- وينفث في وجهي نيرانه!

ولكن، بين لحظة وأخرى، وجدت ابتسامة مخنوقة ومشنوقة ومضروبة مائة حذاء، تجاهد، وتستميت، لتنحشر على وجهه، وتزيح عنه تجهمه وثورته، وهو يقول لي برقة، أشبه برقة "جودزيلا":

- "لو سمحت ممكن كلمة يا أستاذ؟"

فابتلعت ريقي، وتلفت حولي، كأني أشهد الأولاد عليه، حتى إذا قتلني وعبأني في أكياس سوداء، يكونون عليه شهوداً!

ثم توكلت على الله، وخرجت إليه، وأنا ما أزال قابضاً على العصا في قوة!

والحق أن ما سمعته منه، ما كان يخطر لي على بال:

- "بقى يا أستاذ، يعني، إنت ظروف مواصلاتك صعبة حبتين، واحنا زمايل، آه، أمال إيه؟ ولازم نشيل بعض برضه، ونخاف على بعض، هو مافيش مروءة؟، مافيش إنسانية؟"

ثم استطرد، وقلبي يركض في صدري:

- "عشان كده، بلاش تحضر أول ولا تاني حصة ولا حتى التالتة، براحتك خالص بعد كده، هي الدنيا طارت يعني؟ ولاّ طارت؟"

وكدت أموت من الفرحة، ولكني قلت مع ذلك:

- "أيوه يا فندم، بس يعني، مصلحة الأولاد.."

فلم يتركني أكمل، وإنما قاطعني قائلاً:

- "ما إنت بشر برضه يا أستاذ، هو إنت هتقطّع نفسك يعني؟ خلاص بقى، انتهينا"

كان يبذل مجهودا يفوق البشر، حتى يغلّف كل هذا بأسلوب لائق، ويكبت مشاعره الحقيقية، التي يبدو أنها في قمة الثورة، و لم أتركه يمضي هكذا، بعد أن أنهى مهمته الثقيلة على قلبه، وإنما قلت له في "استهبال"، وأنا أرسم ابتسامة بريئة على شفتي:

- "على فكرة يا فندم، الراجل اللي كان تحت ده، جاي بالصدفة!"

ولم أنطق، لأني لو كنت قد فتحت فمي بكلمة واحـــدة، لعاقبني عليها قانون الآداب، بالإعدام شنقاً، أو المؤبد، على أقل تقدير!

ولكني أخذت الكلمة، وحبستها في صدري، ليغلي بها، وأنا أُبيّت له في نفسي مصيبة أو كارثة حسبما يقدرني الله عليه!

حسناً أيها الناظر العظيم، الذي يُقدّر أبناء بلدتـــه ووطنـــه الكرام، ولا يفكر في أبناء "الفرنجة" المارقين (اللـــي هـــو أنـــا طبعاً!).

ويومها، ذهبت لمنزل زميل لي بالبلدة، واستأذنته أن أبيـــت معه هذا اليوم، فرحّب بي، وإن لم يستطع أن يُخفي دهـــشته، واتصلت بمنزلي أيضاً، وأخبرهم بأني في مهمة ثأرية، ولن أعود لأرض الوطن إلا إذا أخذتُ حقي!!

وبالكاد نمت سويعات قليلة في هذه الليلة، إذ أن الـــتفكير بالانتقام الأسطوري، والأخذ بالثأر، كان يشغل بالي، ويؤرقني!

واستيقظت مبكراً جداً في اليوم التالي، وحثثت الخطا مـــن فوري نحو المدرسة، بلا إفطار أو حتى كوب مـــاء، فوصـــلتها حوالي السابعة إلا الربع، ولم يكن هناك أحد بالطبع، فجلست على الطوار المقابل للبوابة في انتظار الفرج!

ومضى عقرب الدقائق يلتهم وليمته الفاخرة، من الثـــواني المسكينة، التي لا تقوى على رد جبروته، حتى أضحت الساعة السابعة، فالسابعة والربع، فالثامنة، ولا أحد يبدو في الأفق، لا فراش، ولا طالب، ولا حضرة الناظر الهمام!

وفي الثامنة والنصف تقريباً، وجدت "الفرّاش" يـــأتي علـــى مهل، وبدون أي نية -حالية أو مستقبلية- للإسراع، يتثــاءب ويتمطى، ويهرش في كل جزء من جسده!

اقترب مني، فعرفني، وأبدى دهشته، وهمّ بسؤالي عن كيفية تبكيري، إلا أنه فقد اهتمامه بالموضوع فجأة، بـــنفس ســـرعة اهتمامه به، واكتفى بإلقاء التحية علـــيّ، فرددهـــا، وبادرتـــه بسؤالي:

- "هي المدرسة بتفتح الساعة كام كل يوم؟"

- "حسب الظروف يا أستاذ، يعني، تمانية ونص، تسعة إلا ربع".

- "وحضرة الناظر بييجي الساعة كام؟"

- "مش قبل الساعة تسعة إلا ربع كده يا أستاذ"

وكدت أجن، هكذا؟!!، فالذي أنوي أن أفعله به، حـــلال إذن!

ووجهه المكلبظ، وعلى "سنحة عشرة" في كل شيء.. إلا شيئاً واحداً: المخ والتفكير!

فعلى الرغم من أنه يأخذ دروساً خصوصية في كل شـــيء تتخيله حتى "الرسم" إلا أن ذلك لم يزده إلا جهلاً على جهل، بل وجعله يُوقف نشاط مخه كلياً -عامداً متعمداً- حال تواجده في المدرسة!

وكل النصائح من نوعية: "ذاكر" و"مستقبلك" و"صحصح فوق"، لا تزيد عن كونها أعيرة طائشة لا تـــصيب ولا حـــتى "تدوش"!

لذا كان من الطبيعي -بل من ثوابت الكون- أن يرســـب سي الأستاذ "سطوحي" في امتحانات منتصف العـــام بالثلـــث والنسخ والرقعة أيضاً!

وأن يتكرر هذا الأمر عينه آخر العام كذلك!

لكن الذي لم يكن طبيعياً بالمرة، أن تنقلب الدنيا فجأة على رأس والده، ويُلغي عقده في الدولة التي يعمل بها لسبب غـــير معروف، ويرجع إلى مصر، ليستقبل مع ابنه خبر رسوبه المجيد!

ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟... وصولاً إلى: "والله لأخرب بيوتهم واحد واحد"!

وفي اليوم التالي لظهور النتيجة، فوجئنا بإحكـام الحـصار حول المدرسة عن طريق مجموعة من "الفتوات" حاملي الـشوم والأحزمة والعصي والقبضات الحديدية، وكل ما لذ وطاب من أرق وألطف وسائل إحـداث العاهة المستديمة، يقودهم الزعيم الموتور "أبو سطوحي" نفسه!

وكان يوماً لا يمكن نسيانه!

حاولنا التفاوض مع الوالد الغاضـب -مـرة ومليـون!- وإفهامه أن "الصلح خير تيجي نتصالح"، وأنه ليس ذنبنـا، وأن مستوى ابنه متدنٍ بالفعل، ولم يظلمه أحد، أو يتعمـد جعلـه يرسب، فلم يقتنعْ، ولم يرضَ عن إذاقة المسئول علقة سـاخنة بديلاً!

وعندما يئسنا منه، وحاولنا الاتصال بالشرطة اكتـشفنا -طبعاً!- أن خطوط التليفون مقطوعة بفعل فاعل!

حتى عندما رفع أحدنا "الموبايل" في الخفاء ليستنجد بـأي أحد، هربت "الشبكة" اللعينة ولم نجد لها أي تمثيل مشرف ولا غيره وأحس الجميع بأنه لم يعد أمامنا إلا أن نضرب برغبتنـا وكرامتنا بدلاً من أن يتم هذا قسراً وإرغاماً!

ملت على الناظر العزيز وهمست في أذنه:

- "تسمح لي أطلع أتضرب الأول عشان اتأخرت وعندي شغل!"

فثار في وجهي وهو يصيح:

- "إنت دايماً مستعجل كده.. حتى ع الضرب؟"

وتركني ومضى يجر قدميه لا يلوي على شيء وهو يشعر بخطورة الموقف ومسئوليته عنا جميعاً!

وأنا أتأمل الوجوه من حولي مستمتعاً بعدم مسئوليتي عن أي أحد.. سواي!

زميلتنا "هالة" تكاد تلطم خديها وتنعي حظها العاثر الذي أتى بها اليوم بالذات للمدرسة بعد طول انقطاع بسبب إجازة الوضع التي كانت فيها!

الأستاذ "أمين" يندم على عدم تزويغه مبكراً هذا اليوم بالذات كما هي عادته منذ تم تعيينه!

في حين استغل عامل "البوفيه" هذا التجمع والتجمهر الذي ربما لن يتكرر ثانية، وراح يمر علينا بكرتونة مليئة بالبسكويت والحلوى والكاراتيه والساندويتشات والمناديل وهو ينادي على بضاعته المزجاة بصوت منغم!!

فجأة، وجدت اسمي يتردد بين الجميع، وينتقل من لسان إلى آخر بسرعة، والعيون كلها ترمقني، ثم خفتت الأصوات جميعاً وعلا صوت الناظر وحده وهو يناديني ويشير إليّ!

أحسست بالقلق، ولكني لم أملك إلى أن ألبي نداءه، وأنـــا اشعر بأن مصيبة من النوع الفاخر في طريقها إليّ على عجل!

- "نعم يا فندم"

- "بص بقى ما هو إنت أصغر واحد فينا واللي ممكن تقوم بالموضوع ده"

بحثت عن ريقي لأبتلعه فلم أجده فقلت بصوت مبحوح:

- "موضوع إيه بالظبط يا فندم؟"

- "تنط من على السور وتبلغ الشرطة"

وأُسقط في يد:

- "أيوه يا فندم بس افرض قفشوني"

- "يبقى عمرك كده يا ابني وإنا لله وإنا إليه راجعون"

- "بس يا فندم أنا ما أقدرش أموت دلوقتي يعني.. عـــشان لسه عليّ أقساط الجمعية وكده!"

- "هابقى أسددها لك أنا.. من معاشك.. اطمئن".

يبدو انه لا مفر!

للحظة واحدة فكرت في الاعتراض إلا أنني كنت واثقاً تماماً من النتيجة فصمت، ورحت أرمـــق الجميـــع بنظـــرة وداع،

وانطلقت إلى حيث السور الخلفي وقلبي ينبض حتى أصمّ سمعي عن الكلمات التي تناثرت من خلفي والتي يبدو أنها نوع من العزاء لي مقدماً!!

لحق بي عامل البوفيه الذي كان يحبني -لأنه يجيد استغلالي وبيعي بضاعته بأضعاف أضعاف سعرها الأصلي!- وهمس في أذني:

- "خلّي بالك يا أستاذ أنا سمعت الناظر بيقول لواحد اطلع قول لـ"أبو سطوحي" خلاص بعتنا لك المدرس اللي سقّط ابنك!"

هكذا؟!

أيها الـ...

حسناً.. سنرى!

وأكملتُ طريقي نحو السور في تحد وتصميم!

واحد...اثنان.. هوب.. وظننت أني اعتليت السور هكذا.. ولكن.. بوم.. الأرض والتراب والعرق والألم الحارق في كفة اليد.. ثانية.. واحد.. اثنان.. هوب.. هذه المرة أمسكت بحافة السور جيداً.. و... بوم.. مرة أخرى؟.. لن أيأس.. واحد.. اثنان.. و.. أخيراً أصبحت على قمة السور.. الخطوة القادمة

النزول من عليه بحذر وبطء.. الرجل اليمنى.. ثم اليسرى.. بوم.. آه يا ظهري!

لم أكن متسلق أسوار ناجحاً أبداً أيام شبابي، وكنت أفضّل الجلوس في الفصل بمفردي بعد هروب جميع زملائي من على السور في آخر حصتين، لأحظى بشرف مقابلة المدرس، الذي لم يكن يسر لوجودي طبعاً، لاضطراره هكذا لإعطاء الحصة مادام طالباً واحداً قد تبقى!

ولكنه كان يقضي كامل الحصة في التفتيش على الكراسات الخاصة بمادته بل -صدق أو لا تصدق- وكراسات باقي المواد أيضاً، حتى إذا وجد كراسة ناقصة -وهذا أمر طبيعي- انهال عليّ ضرباً وتقريعاً وأجبرني على رفع يدي وأحياناً رجلي طوال الحصة، على أمل أن أهرب المرة القادمة مع زملائي ليستريح هو!

ولكم أن تتصوروا مقدار صدمته ودهشته عندما كان يجدني في المرة التالية جالساً وحدي في هدوء في نفس المكان وواضعاً أمامي كل الكراسات والكتب التي يمكن أن تخطر بباله!

بل كاد يجن مرة عندما لم يجد شيئاً ناقصاً معي فطلب كتاب مادته الذي درسناه في العام الماضي وهو ينظر نحوي ساخراً، ولحسن الحظ كنت أحمله معي في حقيبتي بعد أن نسيت إعطاءه لابن الجيران الذي كنت أذاكر له بالأمس!

قمت من سقطتي بسرعة مرعبة، ليس بإرادتي بالطبع، ولكن بفعل يد بشرية ضخمة، امتدت من حيث لا أدري وأقــامتني مكاني، وعندما دققت النظر، اكتشفت أنها -اليد- موصــولة بجسد لا يقل ضخامة عنها بل يزيد!

فقدت النطق للحظة، وعندما عاد إليّ، تحدثت إليه بعبارات بليغة وفصيحة من نوعية:

- "بففف.. ممم.. لغغغغ".

ولكن الرجل رد بحماس:

- "اخرس"

فخرست!

ووجدت نفسي في اللحظة التالية أمام "أبــو ســطوحي" شخصياً!

تمالكت نفسي، وتوجهت إليه بالكلام:

- "يعني يصح يا أستاذ اللي بيحصل ده؟"

- "وهو يصح ابني يسقط بعد كل الفلوس اللي صــرفتها عليه؟"

- "إنت صرفتها عليه هو مش علينا.. يبقى المفروض تحاسبه هو مش احنا"

- "كان لازم تاخدوا بالكم منه"

- "ومين قال لك إننا ماخدناش؟"

- "نتيجته!"

وبدا أننا لن نصل إلى نقطة اتفاق!

وفجأة خطرت لي فكرة، فقلت في نفسي: "فلأجرب"!

ملت على أذنه وهمست له:

- "أنا هاقول لك ع الصراحة وأمري لله"

أرهف الرجل سمعه وأنصت بشدة فاستطردت:

- "بصراحة بقى الناظر هو السبب في اللي حصل لابنك"

- "إيه.. بتقول إيه؟.. ازاي؟"

- "أصل ابنك اتخانق مع ابنه فحب ينتقم منه"

- "معقول"

- "صدقني.. وأنا هاكدب ليه بس؟ ولو مش مصدقني اسأل ابنك هو اتخانق مع ابن الناظر قبل كده ولا لأ!"

فبعث من فوره أحد رجاله للمترل القريب وعاد ليؤكد ما قلته، وقد توقعت هذا بالفعل، فلا يوجـــد مـــن لم يتحـــرش بـــ"سطوحي" في المدرسة كلها، غيرة منه ومن إسرافه وغناه!

نظرتُ نحو "أبو سطوحي" الذي كانت عيناه تطقان شـــرراً الآن وهو يتمتم:

- "يا ويله يا سواد ليله.. يعني كان بيستغفلني وعايز يلبس التهمة لحد تاني؟!!"

- "إنت عايز تاخد حقك فعلاً؟"

- "طبعاً"

- "يبقى تسمع كلامي وتنفذه بالحرف الواحد"

وملت عليه أكثر وقلت له:

- "إنت لو فضلت محاصر المدرسة كده، ماحـــدش طـــالع منهم، وأكيد أهاليهم هيقلقوا عليهم وممكن حد منهم ييجـــي ويشوف الموقف ويبلغ البوليس.. تمام؟"

- "تمام"

- "ولو دخلت له المدرسة دلوقتي.. المدرســـين هيخبـــوه منك.. ومش هتطوله"

- "والله كلامك صحيح.. أمال إيه الحل؟!"

- "الحل إنك تسيب المدرسين كلها تروّح.. وتـــدّي لـــه الأمان.. وهوب.. تستفرد بيه.. وتعمل اللي إنت عايزه"

وبدا أن الرجل قد اقتنع، فقد انفرجت أساريره وهو يقول لي:

- "عفارم عليك يا أستاذ.. فكرة هايلة"

وهكذا، دخلت المدرسة من البوابة، رافع الرأس، ثم قلت للمدرسين بعد فترة صمت وترقب:

- "براءة يا جماعة.. اتفضلوا روّحوا بيوتكم"

فنظروا نحوي جميعاً بدهشة، إلا أن انصراف الجيش العرمرم المحيط بالمدرسة قد منحهم بعض الطمأنينة، فالتفوا حولي: وازاي؟ وعملت إيه؟ وإيه اللي حصل؟؟

كان أكثرهم دهشة بالطبع وعدم تصديق لرؤيتي حياً أرزق هو الناظر العزيز!

لكني اكتفيت بابتسامة واثقة وأشرت بيدي في كبرياء مثل الفاتحين العظام وأنا أقول:

- "اتصرفت بطريقتي".

في اللحظة التالية، أسرع الجميع بالانصراف، غير مصدقين أنهم نجوا من هذا الموقف الخطير، وكما توقعت بقي الناظر للنهاية، حتى يطمئن على سلامة الجميع، فملت عليه وهمست في أذنه قبل أن أنصرف بدوري:

- "سامحني يا حضرة الناظر"

فنظر نحوي بدهشة وهم بسؤالي عما أعنيه، إلا أن أشـــباح الرجال المدججين بالشر قد عادت للظهور من جديد، مما أفقده النطق، ومنح لي الفرصة للفرار!

....

كل شيء عاد سيرته الأولى بعد قليل، إلا أن تغيّراً طفيفاً قد طرأ على نظام حياتي، إذ أصبح من مهامي اليومية، بعد انتـــهاء حصصي المقررة في جدولي، المرور على قـــسم الكـــسور في المستشفى العام للاطمئنان على صحة حضرة نـــاظر المدرســـة العزيز.

خمس نصائح ذهبية لمن يريد أن يظل محتفظا بشيء من قواه العقلية !

وحتى لا أُتهم نفسي بالتقصير، وأقع فريسة لتأنيب الضمير، فهذه روشتة، لابد منها، مجربة وموثوق من نتائجها — نوعاً ما! — لكل باحث عن استقرار قواه العقلية، وراغب في الابتعاد عن عيادة الطبيب النفسي، أطول فترة ممكنة، وآمِل في أن يظل باقياً منه — مع الأيام — ما يصلح للزواج والإنجاب وتربية الأبناء ، والقيام بأعباء الحياة ، فاقرأها بوعي ، وتقبّلها بفهم ، واعمل بها غير مقصر ولا متكاسل ولا هيّاب :

١ . إذا كنت — لا قدر الله — مدرسًا، وأخذتك العزة بالإثم، وفكرت أن تكتب الدرس على السبورة، معتقدًا أنك هكذا تؤدي ما عليك ، وتُرضي ضميرك، وتُفيد طلابك، وما إن استدرت للسبورة وأعطيتهم ظهرك، لتنفذ — والنية لله وحده — ما نويت عليه، فاستمعتَ فجأة إلى أصوات نهيق ، ونباح ، ومأمأة ، وصهيل ، وبكاء لأطفال رضّع، وفرقعة ، وصراخ جرحى ، وأنين ثكلى ومظلومين، فلا تظن أن الطلبة الأعزاء ، يسخرون منك، لا سمح الله ، أو يقللون من شأن إخلاصك، لا قدر الله ، ولكنه بالتأكيد ، تليفزيون الجيران —

أول جار يبعد كيلو متراً على الأقل عن موقع المدرسة المهجور!- وقد فتحوا على " ماتش " مصارعة ، حامي الوطيس، وأحد المتصارعين يفقأ عين زميله على سبيل التسخين!

فلتكمل إذن مهمتك المقدسة، وواصل ما تكتب، فالأولاد العباقرة، متعطشون للنهل من فيض علمك الذي لا ينضب ، وسوف يموتون ــ كمداً وحسرة ــ لو لم تُكمل !

٢. إذا كنت ــ لا سمح الله ــ مدرسًا، وفكرت أن تُتحف التلامذة الأعزاء، بواجب منزلي للتأكد من استيعابهم لما تقول، فوجدت التوحش و "التناحة" تتوج نظرات الجميع، والشفاه توشك أن تتحرك بما لذ وطاب من أفخر الألفاظ المنتقاة من قاموس " أكسفورد الدولي" للشتائم المحلية، فلا تحزن، ولا تظن الأولاد متكاسلين، أو متهاونين، ومتقاعسين، فهم فقط مشفقون عليك وعلى صحتك ووقتك الثمين، ونظرك الغالي أن يُستهلك في التصحيح والمراجعة وتعليم الكراسات!

فكن على مستوى حبهم لك، وقدّر تضحيتهم بمصلحتهم من أجلك، والغ موضوع الواجب هذا، ولا تتطرق إليه أبداً بعد اليوم !

٣ . إذا كنت ــ لا كتبها الله عليك ــ مدرسًا، وجاءت لك بنت "مفعوصة"، تحرضك على مطالبة الأولاد اللطاف

الظراف، بدفع "شلن" عن كل راس في الفصل بدعوى شـــراء "طباشير"، فلا تستمع إليها، و اعلم أنها جاسوسة، وساعية في خراب بيتك العامر، فمن سوف تظنه سوف يسدد ديون مصر ويساعد مشروعاتها الاقتـــصادية الـــضخمة علـــى الترعـــرع والنهوض إن استبحتَ لنفسك أخذ هذا "الشلن" منهم ظلمـــاً وعدواناً ؟!، ثم من الذي يحتاج هذا " الطباشير" بذمتك ؟ .. أليس أنت ؟، ثم تعال هنا وقل لي : في أي شيء، سوف تُنفق مرتبك الفاخر الذي تقبضه بملء يدك كل شهر ؟ !

إذن .. فأدخل يدك في جيبك ـــ بلا صوت واحـــد! ـــــ تخرج محملة بثمن علبة " الطباشير "، من غير سوء ، كلما نفد المخزون، واحذر أن تفعل ذلك إلا وأنت تبتسم في ســـعادة و "انشكاح".

٤. إذا كنت ـــ الشر بره وبعيد ـــ مدرسًـــا، وهممـــت بعقاب طالب مقصر، لا يحضر قلمًا ولا كراسًا ولا كتابًا ، ولا يلتزم بموعد حصة أو فسحة، ولا يفرُغ من حديث مع زميـــل إلا لينهمك مع آخر، في عز الشرح والمناقشة، ولا يجلـــس في مكانه لمدة خمس دقائق كاملة أبداً ..فنظر لك نظرة من نوعية: " ما تقدرش ! "، وقال لك بكل كبرياء : " إنـــت ملكـــش ضرب عليا "، وجلس مكانه، واضعاً رجلاً على الأخرى، دون

حتى أن تأذن له فلا تنفعل أو تثور، من أجل مصلحتك أنـــت، وصحتك وأعصابك أنت، وحاول التماس الأسباب المنطقيـــة التي دفعته لموقفه هذا، فهو لم يفعل ذلـــك إلا خوفـــاً علـــى أصابعك الرقيقة من استخدام العصا الغليظة، وخـــشية علـــى حسك المرهف من رؤيته يتوجع!

لذا .. فقابل المعروف بمثله، وأجب على الفضل بأحـــسن منه، وتقدم من تلميذك العزيز، وقَبِّل رأسه فوراً، بلا ذرة تردد واحدة، و أعطه العصا بنفسك، وافتح أنت يديك، واطلب منه أن يأخذ منك حقه كاملاً، جزاء ما أسأتَ الظن به، ونبت في رأسك من الأفكار الشريرة عنه..وعلى كـــل حـــال " أهـــم عصايتين ويعدوا"!!

٥. إذا كنت ــ من خيبتك وتغفيلك ــ مدرسًا، ورأيت زملاءك لا يدخلون الحصص إلا لمامًـــا، وأغلـــب أعمـــالهم ، وأعظم بصماتهم إنما هى في ملعب المدرسة، حيث مباريـــات كرة القدم، وتنس الطاولة، ولا يحملـــون دفتـــراً ولا كتابـــاً، يصفرون بأفواههم في كل آن، ويضحكون ملء قلـــوبهم، ولا يحملون للدنيا همًا، وأحيانًا يختفون فجأة، بالأيام والأسابيع، ولا يظهرون إلا يوم قبض "المرتب" فحسب!

فلا تندهش، ولا تسيء الظن بأحد، فهم من فرط ثقتـــهم فيك، يتركون لك حصصهم وطلابهم أمانة في رقبتك إلى يـــوم القيامة، واثقين من قدراتك الفذة على تنشئة جيل هائل، يحترم المواعيد والالتزامات والمسئوليات، فأنت منـــدوبهم الـــسامي ووكيلهم في المهمات الصعبة ونائبهم لقيـــادة دفـــة الـــسفينة التعليمية!

فاشكر الله على نعمائه عليك، وحسن اختيارهم و شمّر عن ساعد الجد لكي تدخل الـــ ١٦٥ حصة التي أصـــبحت مـــن قسمتك ونصيبك !!

إعلانات مبوبة

مطلوب

● مدرس لغة عربية يعلن عن حاجته لمرارة جديدة، بعد أن "فُقعَتْ" مرارته أمس -بعد طول صبر وتحمل- بسبب غباء تلامذته!

● فصل مكيف الهواء، به سبورة لوكس، ومدرس مستعد لتوصيل الطلبات للمنازل، وكتب دراسية وارد بلاده، يعلن عن حاجته لطلاب!

● محفظة مدرس حديث التعيين، تعلن عن حاجتها لنقود!

● عقل مدرس، يعلن عن حاجته لمجموعة من "الأبراج" فلم يعد يملك منها رصيداً احتياطياً يكفيه!

● أب ثري، يعلن عن حاجته لمدرس محو أمية محترف، للمراجعة النهائية لابنه في الثانوية العامة!

● مدرس يُعلن عن حاجته لفردة حذاء شمال، متينة، وغير قابلة للتلف، من كثرة المشي، وصعود سلالم المدرسة، ومطاردة التلاميذ بين الحصص، تقبل التعايش السلمي مع الفردة

الأخرى، مع ضرورة توفر شهادة ضمان لمدة عشرين سنة على الأقل، وتوفر نظام تقسيط مريح، يسدد بمقتضاه ثمن "الفـــردة" هو والورثة، (ملاحظة: لا يهم لون الحذاء ولا مقاسه).

● مدرس على المعاش، يقيم في مستشفى العباسية للأمراض العقلية، يعلن عن حاجته لرؤية تلميذ واحد محترم قبل أن توافيه المنية!

● أب يعلن عن حاجته لمجموعة من "النُقط" لابنه الـــشاب في الثانوية العامة، الذي يكتب جميع حروف اللغة العربية بـــلا نقطة واحدة.

مفقودات

فُقِدَتْ أمس "كرامة" مدرس، على يد ناظر المدرسة، الذي أهانه أمام طلاب فصله، لنسيانه كتابة تـــاريخ اليـــوم علـــى السبورة، وعلى مـــن يجـــدها، الاتـــصال بالأرقـــام التاليـــة: ٠١٢٢٢٢٢ أو ٠١١١١١١.

وظائف خالية

السعادة مول، يعلن عن حاجته لعمال نظافة، براتب يـــبدأ من ١٠٠٠ جنيه، غير الحوافز والبدلات (ملاحظة: المدرســـون يمتنعون)!

وفيات

توفي إلى رحمة الله تعالى، الأستاذ "عصام مرتضى" بعد صراع طويل مع "الطلاب" في مختلف فصول ومدارس بر مصر، وقد حانت منيته المفاجئة أمس، حيث باغتته السكتة القلبية، من الفرحة وعدم التصديق، عندما كتب أحد تلامذته من الصف الثالث الإعدادي، اسمه ثلاثياً، بدون أية أخطاء إملائية، للفقيد الرحمة، وللأسرة الصبر والسلوان.

عطاءات ومناقصات

● تعلن وزارة التربية والتعليم عن حاجتها لبناء مدارس جديدة وفقاً للشروط والمواصفات التالية:

١. لابد أن يكون زجاج نوافذ الفصول مضاداً للرصاص، حتى يتحمل براعة وتفنن الطلاب في التنشين.

٢. وتكون "التُخت" من مواد غير قابلة للكسر، أو الاشتعال، حتى تظل تتمتع بالصحة والعافية، ولو لمدة "تيرم" واحد فقط.

٣. وتكون المصابيح الكهربية تضيء فعلاً، ولا تكتفي بالتعبير عن رغبتها في الإضاءة، بالارتعاش والارتجاف، طوال السنة والسلام!

٤. كما لابد أن تكون السبورة صالحة للاستخدام الآدمي، وتسمح بمرور الطباشير عبرها دون أن يُعد ذلك امتهاناً لحقها في حياة لائقة وشريفة، أو جرحاً لكبريائها.

٥. وتكون أسوار المدرسة، عالية، وحصينة، ومكهربة، حتى تمنع كل من تسول له نفسه القفز من عليها.

٦. وأطقم السباكة لابد أن تكون من النوع الذي يقاوم الظلم والطغيان، واستبداد الإنسان، وتجبّره على مخلوقات الله الضعيفة، حتى لا تحال للمعاش المبكر، بعد أسبوعين.

٧. أما عن حجرة المدرسين، فلابد أن تكون معدة لتحمل القنابل الذرية، والنيوترونية، ومزودة بمخابئ للطوارئ، وأنفاق آمنة، وأسلحة ثقيلة وخفيفة، وتليفون مزود بخاصية الاتصال الآلي وقت الخطر بقوات الصاعقة المصرية.

٨. بلاط الأرضيات لابد أن يكون ضد الخلع والكسر، وشديد الانتماء للتربة التي ترعرع فوق أرضها، ولا يتمتع بأي رغبة في الغربة أو السفر أو الفراق!

مزادات

يعلن طلاب مدرسة "بيت العز" الإعدادية، عن توفر كميات كبيرة جداً من كتب المرحلة الإعدادية، لم تفتح، أو يلوثها قلم، تصلح لجميع الأغراض، من لف وتغليف ومسح وتنظيف أرضيات، البيع لأعلى سعر بالمزاد العلني، يوم الأربعاء المقبل، بمقر "حوش المدرسة"!

تهنئة

العاملون بمدرسة "للصبر حدود" الإعدادية، يهنئون زميلهم "حسام مصطفى" باستقالته الجريئة من التربية والتعليم، ويرفعون أكف الضراعة جميعاً، إلى الله العلي العظيم، أن يمن عليهم كذلك بهذه النعمة، ويلهمهم الصبر والسلوان، إلى أن يأذن سبحانه، ويحين الأوان.

مطلوب

- كتب دراسية، في مختلف المواد، والمراحل التعليمية، تعلن عن حاجتها، لمن يفتحها، ولو مرة واحدة، وله الأجر والثواب عند الله.

- مدرس نحيف، يعلن عن حاجته لمن يتبرع له بعدة كيلوجرامات، ليبدو في مظهر لائق أمام طلبته، يضمن له خوفهم منه، وانصياعهم له، وليتحمل مشاق وأهوال التدريس.

● كراسة طالب في الإعدادية، لا يوجد بها، غير الاسم، تحتاج لعدة سطور إضافية، حتى تتخلص من شعورها بالملل والفراغ.

دعوة

يعلن مركز "النَفَس الطويل" ، عن تنظيم مجموعة جلسات تثقيفية، لمناقشة كتاب "دع التدريس، وابدأ الحياة"، بمقر المركز، والدعوة عامة للجميع.

نداء

إلى صاحب القلب الرحيم، والقرار الحازم، وزير الصحة والسكان، يُرجى من سيادتكم التفضل بالموافقة على علاجي على نفقة الدولة، حيث إن عمليتي خطيرة، ومكلفة، لا يتحملها راتبي المتواضع، حتى بعد إضافة مكافأة الامتحانات إليه لمدة عشرين سنة!!، وهي عملية تركيب "مخ"، نصف عمر حي، ومائتي متر من الأعصاب الحديدية، وخمسة لترات من الدماء الباردة، بعد استهلاك كل هذا أثناء فترة خدمتي!

إمضاء

زغلول زغلول

مدرس اللغة العربية

رحلات

تعلن "سوناتا ترافل" عن بدء موسمها السياحي، بتنظيم رحلات متميزة، لزيارة معالم مصر الخلابة، الأسعار.. مفاجأة.. (المعوقون والمدرسون وذوو الاحتياجات الخاصة والأطفال... مجاناً)!

مطلوب لمدرسة خاصة

- مدرسون في جميع التخصصات تتوافر فيهم المؤهلات التالية:

١. إجادة تامة لكل فنون القتال اليدوي، والمسلح، من المصارعة الحرة إلى "السومو" الياباني.

٢. لا يقل وزن المدرس عن ١٥٠ كيلو جراماً.

٣. يفضل من لهم سوابق، أو جنح، وجنايات.

٤. لا يشترط الخبرة أو المؤهل أو سنة التخرج أو الكفاءة أو القدرة على توصيل المعلومة.

- وسوف يتمتع المدرسون بالمميزات التالية:

١. تأمين صحي شامل، وعلاج مجاني لكل ما يصيبه أثناء الخدمة.

٢. بوليصة تأمين ضد الحياة من أول يوم يدخل فيه فصلاً.

٣. بدل مخاطر مهنة.

٤. رواتب مجزية ومكافآت، تعوض الورثة، وتضمن لك ترحمهم عليك أبد الآبدين.

– فعلى الراغبين سرعة تقديم أوراقهم، والاستعداد للكشف الطبي.

شكر وتقدير

– تتقدم هيئة المهن الطبية، واتحاد الصيادلة المصريين، بوافر الشكر والتقدير، لطلاب مصر المحروسة، لمساعدتهم في إنقاذ البلاد من أزمة مالية طاحنة، ومن تراجع في الدخل القومي، وذلك بمساهمتهم البناءة والحقيقية في الترويج لأدوية الضغط والسكر والعته المنغولي وقرحة المعدة والشيخوخة المبكرة، التي اشتد الطلب عليها مؤخراً من كافة مدرسي القطر المصري.

دعوة

تعلن مستشفى الأمراض العقلية، بالعباسية، عن تخريج دفعتها السنوية الجديدة، من المدرسين، بعد إعادة تأهيلهم،

للعودة لمزاولة عملهم مرة أخرى، وبهذه المناسبة، سوف يـــتم إقامة حفل تخرج، على شرفهم، يحضره السادة أولياء أمورهم، ومديرو مدارسهم، والدعوة عامة للجميع، (ملاحظة: الطلاب يمتنعون)!

إبادة آفات

– مدرس، يبحث عن مبيد حشري قوي، يصلح للقـــضاء على جهل وغباوة واستخفاف الطلاب، (ملاحظـــة: لا يهـــم السعر، المهم الفاعلية)!

مناقصات

– أب يعلن عن طرح "أبنائه" بمراحل التعلـــيم المختلفـــة، للبيع، أو الإيجار، وفق الشروط التالية:

- يفضل المشترون المقيمون خارج قارة إفريقيا بأكملها.
- البيع جملة وقطّاعي.
- لابد أن يتمتع المشتري بالمواصفات التالية:

١. العرض "عرضين"، والطول لا يقل عن ثلاثة أمتـــار، وحجم قبضة اليد حسب مواصفات وزارة الداخليـــة لتعـــيين المخبرين الجادين.

٢. إجادة إحدى رياضـــات الـــدفاع الـــنفس (يفـــضل الحاصلون على بطولات عالم).

٣. إتقان استخدام الأسلحة النارية والـــسلاح الأبـــيض وقنابل "المولتوف".

٤. وجود شهادة معتمدة من زوجته وحماته تفيد طـــول باله وصبره على نوازل الدهر.

٥. تمتع المشتري بكمية لا يُستهان بها من التخلف العقلي والعته المنغولي، حتى يستطيع التعامل معهم (كلما زادت نـــسبة التخلف زادت احتمالات التوافق وتـــوفر الحيـــاة الـــسعيدة للجميع).

٦. الدراسة لمدة لا تقل عن عامين في إحـــدى الحـــارات المصرية الصميمة والحصول على شهادة معتمدة تفيد الإجـــادة التامة لقاموس "إكسفورد المصري للشتائم واللغـــة الـــشبابية الهابطة".

- وهذا ما سوف تحصلون عليه لو اتصلتم الآن:

- البيع مجاناً.
- مكافآت مجزية للمشترين.
- حوافز شهرية.
- كسوة سنوية وحذاءان.

- رقم للاتصال به وقت الطوارئ.
- ملاحظة: العرض سار حتى نفاد الكمية.

مسابقات

- تعلن جمعية "اديني عقلك" الخيرية، عن تنظيم مسابقة كبيرة، للإجابة على هذا السؤال: "كيف يستطيع المدرس في مصر أن يكمل شهراً كاملاً براتبه الفاخر؟"، ترسل الحلول على ص. ب ١١٤، ٥ شارع "الصبر من عندك يا رب"، عمارة "الأمل"، علماً بأن الجمعية لم تقم بعد بتحديد الجوائز بشكل نهائي، لشكها في وجود من يستطيع الاشتراك في المسابقة.

- مدرسة "ابقى قابلني" الإعدادية، تعلن عن بدأ فعاليات مسابقة "الطالب المثالي"، وعلى الطلاب الراغبين في التقدم مراعاة هذه الشروط:

١. عدم تجاوز سنوات رسوبه في العام الدراسي الواحد عن أربع سنوات.

٢. عدم تجاوز سوابقه في قسم الشرطة التابع له عن خمسة.

٣. لا تزيد أيام الغياب في العام الواحد عن ٣٦٥ يوماً.

٤. عدم تسجيل أكثر من ١٠ وقائع اعتداء ضده، علـــى المدرسين وناظر المدرسة والفراش وزملائه الطلاب، في الـــتيرم الواحد.

٥. مشاهدة عدد كتاب واحد أو كراسة معه على الأقل، لمدة تزيد على الدقائق الخمس ولو لمرة واحدة فقط خلال العام الدراسي.

حكـــــمة

التدريس: تهذيب وإصلاح!

دُعاء المدرس

اللهم لا تجعل "التدريس" أكبر همنـــا، ولا مبلـــغ علمنـــا، واجعل "المعاش" لنا راحة من كل شر، ونجاة من كل مُر، اللهم تب علينا من التدريس والفواحش والمعاصي، وقنا شر الطريق، والخبث و"الطلاب" والخبائث، وبلغنا مآربنا، ومنازلنا، كـــل يوم، بعد الدراسة سالمين، اللهم أفرغ علينا صـــبر "أيـــوب"، وحلم "موسى"، وسماحة نبينا "محمد" الكـــريم، وكفـــر عنـــا سيئاتنا، بما نلقى من طلابنا، واكتبنا مع الشهداء، والصديقين، والصابرين، المحتسبين، يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

عن المدرس سألوني !

أيام في حياة كل مدرس

— ٢٥ في الشهر : عيد زفاف المرتب لجيب المدرس .

— ٢٦ في الشهر : تشييع جنازة " المرتـــب " إلى مثواهـــا الأخير، في جيوب المستحقين !

— ٢٧ في الشهر : رحلة انتظار المرتب الجديد !

ألوان في حياة كل مدرس

— أبيض : عقول الطلاب ، وجيوب المدرسين .

— أسود : قلب كل طالب .

— أحمر : عيون الناظر عندما يرفض المدرس دخول حصة احتياطي .

— أزرق : نهار كـــل مـــدرس يـــرفض "التغـــشيش" في الامتحانات .

مستحيلات في حياة كل مدرس

ـــ العنقاء والغول والتلميذ الوفي !

ـــ المرتب الذي يكفي ليوم ١٠ في الشهر !

ـــ تقدير أي أحد له !

ـــ تمتعه بالصحة والعمر الطويل !

أفراح في حياة كل مدرس

ـــ يوم الإجازة الرسمية .

ـــ يوم قبض الحوافز .

ـــ يوم خروجه إلى المعاش .

ـــ يوم لقاء ربه .

حال كل مدرس

أعلمه القراءة كل يـــوم   فما فهم القراءة والمعـــاني!
كم علمتُه نظمَ الحروفِ   فلما قال شيئاً .. قال "تاني"!

دعاء كل مدرس

اللهم يا صاحب المن والإكرام ، تُب علينا مـــن التـــدريس والامتهان ، وملاقاة الطلبة من غير ذوي الاحترام ، والموجهين راغبي الانتقام ، والنُظّار ضيقي الأحلام ، ولجان الوزارة حاملي الأقلام بغرض التشطيب والعقاب والإيلام "

اختبار نفسي

هل ترى في نفسك القدرة على أن تكون مدرّساً؟

لحظة من فضلك!

لا تحسبن التدريس مهنة سهلة، أو مهنة من لا مهنة له، ولكنه فن صعب، ومواله يطول شرحه، ولا يقدر عليه إلا رجاله، طويلو النَفَس والروح، المدركون لخطورته وجدواه، فهل تتجاسر وتظن أنك من الممكن أن تصبح واحداً منا.. حسناً.. بيننا وبينك، هذا الاختبار البسيط، أجب عنه بأمانة، ولنرَ في النهاية، ما الذي سوف تحصل عليه!

١. عندما تجد طالبين متحمسين في الفصل، يتحدثان بأعلى طبقة صوتية خلقها الله، أثناء انهماكك في شرح درس معقد وطويل:

● تتحرك بخفة، وتخرج من جيب بنطالك الخلفي، قاذفة اللهب، التي تدخرها دائماً، لمثل هذه المواقف، وتشويهما حيين!

● توقفهما، وتقيم عليهما حد السرقة والقتل والحرابة معاً!

● تطردهما من الفصل، بزفة وهيصة وفضيحة بجلاجل!

٢. عندما يعجز طالب في الصف الثالث الإعدادي -طولك تقريباً، ويرتدي ثياباً أفخر منك، ويبدو من الانتفاخ الظاهر في جانب جيبه الأيمن، أنه يملك مصروفاً يساوي راتبك في خمسة أشهر على الأقل- عن قراءة عنوان الدرس المكتوب على السبورة وراءك، مرة ثانية:

- تصاب بجلطة دماغية تؤهلك -بجدارة- لحمل لقب مرحوم!
- تلقيه من النافذة غير مأسوف علي شبابه!
- تقدم فيه بلاغاً إلى النائب العام!

٣. عندما تتأكد أن طالباً، لم يحضر لك لا كتاباً ولا كراسة ولا قلماً أو ورقة طوال العام، مهما صبرت عليه، وقدمت له من نصائحك الغالية، ولا ينوي ذلك في المستقبل القريب أو البعيد:

- تبيعه في مزاد علني!
- تجعله يقف في نهاية الفصل، رأسه لأسفل، وقدماه لأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!
- تصبح مثل الهنود الحمر، وتسلخ رأسه حياً!

٤. عندما يزورك مُوجّه المادة، ويسأل الأولاد مازحاً، عـــن عكس كلمة "حرب"، ومع ذلك لا تجد إصبعا أو يدا أو حـــتى رجلاً، ترتفع لمحاولة الإجابة، مجرد محاولة الإجابة:

• تلوث الفصل باليورانيوم المشع وأنت تـــصرخ: "علـــيّ وعلى أعدائي".

• تمزق ثيابك، وتنكش شعرك، وتسير في المدرســـة تغـــني "دي دي.. دي دي واه"

• تنتقي أكبر حائط في المدرسة وتخبط رأسك فيه.

٥.عندما تفاجأ بأن نتيجة فصلك، في امتحانات منتـــصف العام، في المادة التي أهلكتَ فيها نفسك شرحاً وتوضـــيحاً، لا تزيد عن ١%:

• تُخرج -بكل هدوء- زجاجة مياه البحر، التي لا تفارق جيبك، منذ عملتَ مدرساً، وتأخذ لك شفطة أو شفطتين.

• تتفق مع قاتل محترف، ليترصد خطواتك، ويخلّصك مـــن هذا الجحيم.

• تقدم استقالة مسببة، إلى مدير الإدارة، مشفوعة برجـــاء حار، بقبولها فوراً، وإلا ألقيتَ على وجهه ماءَ النار!

٦. عندما تجد ولي أمر أحد طلابك، يمسكك من ياقة قميصك الوحيد، ويهم بضربك، لمجرد أنك أسمعت أذن ابنه الرقيقة، كلمة "يا حمار"، عندما وجدته ينهق في الفصل بالفعل، أثناء وجود ناظر المدرسة للإشراف:

• تُخرج مطواتك -التي اشتريتها خصيصاً لمناسبة لطيفة كتلك- وتطعنه بها في رقبته، ثم تذبح ابنه!

• تُخرج مطواتك -برضه!- وتطعن نفسك في القلب، تكفيراً عن هذه الجريمة التي لا يُجدي معها أي اعتذار!

• تنهق فوراً، وتترل على أربع أيضاً، وتطلب من التلميذ المهذب، أن يشتمك بقوله "يا حمار" حتى توفّي الدين المعلق في رقبتك "وتبقوا خالصين!"

٧. عندما تدخل الفصل، في بداية العام الدراسي الجديد، وتفاجأ بنفس طلابك الأعزاء، على نفس مقاعدهم، حيث لم ينجح أحد، ولا يبدو أنهم ينوون ارتكاب هذه المصيبة، في يوم من الأيام:

• تخرج من الفصل مهرولاً، وتلقي بنفسك أمام أول "أتوبيس" يقابلك.

• تبعث الفراش فوراً، ليأتيك بزجاجة سم فأر، من النوع الفاخر، وتشربها كاملة.

• تقتل مدير المدرسة، وتذهب للقسم، وتعترف على نفسك، وتطالب بإعدامك.

٨. عندما تقبض راتبك، أول كل شهر، وتحاول باستماتة إيجاد أي فائدة له أو نفع، وتفشل كل مرة في ذلك فشلاً ذريعًا:

• تبيع اللب والسوداني واللبان للأولاد بين الحصص وفي الفسحة.

• تتعلم سرقة الغسيل من على أسطح البيوت من أجل زيادة دخلك.

• تدبر خطة متقنة، لاغتيال الصراف، ومصادرة رواتب المدرسين منه، أول الشهر.

النتيجة:

- إذا كانت معظم إجاباتك بالاختيار الأول.. فأنت لا تصلح حتماً أن تكون مدرساً!

- وإذا كانت معظم إجاباتك بالاختيار الثاني.. فأنت أيضاً لا تصلح أن تكون مدرساً!

- أما إذا كانت معظم إجاباتك بالاختيار الثالث.. فأنت -صدقني- لا تصلح أن تكون مدرساً!

الفهـــرس

المؤلف

ـ حسام مصطفى إبراهيم.

ـ حاصل على ليسانس آداب وتربية ـ قسم لغة عربية ـ جامعة المنصورة ٢٠٠١.

ـ يعمل محررًا بموقع "بص وطل" www.boswtol.com ، ومراجعًا لغويًا وديسك للعديد من المجلات والمواقع ودور النشر.

ـ حاصل على المركز الأول في مسابقة " ساقية عبد المنعم الصاوي" للقصة القصيرة عام ٢٠٠٧.

صدر له :

يوميات مدرس في الأرياف ـ دار ليلى ـ ٢٠٠٧.

يوميات مدرس في الأرياف ـ الطبعة الثانية ـ دار اكتب ـ ٢٠٠.

بيت في نهاية شارع ـ "قصص ـ مشترك " ـ دار ليلى ـ ٢٠٠٦.

تحت الطبع :

- لولا وجود الحب ــ دار أجيال ــ ٢٠٠٨.

للاتصال :

hosammostafa_it@yahoo.com
enghosammostafa@gmail.com

مدونتي :

www.fadfadat.blogspot.com

